مجلَّة الجامعة الإسلاميَّة للُّغة العربيَّة وآدابها

مجلَّة عِلميَّة دَوْريَّة مُحكَّمة

الجزء 2

العدد
13

يوليو - سبتمبر
2024م

١٣٨١
١٩٦١

بسم الله الرحمن الرحيم

معلومات الإيداع

في مكتبة الملك فهد الوطنية

النسخة الورقية:

رقم الإيداع ١٤٤٣/٣٢٨٣ بتاريخ ١٤٤٣/٠٤/٠٢ هـ

ردمد: ١٦٥٨-٩٠٧٦

النسخة الإلكترونية:

رقم الإيداع ١٤٤٣/٣٢٨٤ بتاريخ ١٤٤٣/٠٤/٠٢ هـ

ردمد: ١٦٥٨-٩٠٨٤

الموقع الإلكتروني للمجلة

http: //journals. iu. edu. sa/ALS/index. html

ترسل البحوث باسم رئيس تحرير المجلة إلى البريد الإلكتروني:

asj4iu@iu. edu. sa

البحوث المنشورة في المجلّة تعبّر عن آراء الباحثين

ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة

جميع حقوق الطّبع محفوظة للجامعة الإسلامية

هيئة التحرير

د. تركي بن صالح المعبدي
(رئيس هيئة التحرير)
أستاذ النحو والصرف المشارك بالجامعة الإسلامية
د. خليوي بن سامر العياضي
(مدير التحرير)
أستاذ تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها المشارك بالجامعة الإسلامية
أ.د. عبد الرزاق بن فراج الصاعدي
أستاذ أصول اللغة والمعاجم بالجامعة الإسلامية
أ.د. عبدالرحمن بن دخيل ربه المطرفي
أستاذ الأدب والنقد بالجامعة الإسلامية
أ.د. الزبير بن محمد أيوب
أستاذ أصول اللغة والمعاجم بالجامعة الإسلامية
د. مبارك بن شتيوي الحبيشي
أستاذ البلاغة المشارك بالجامعة الإسلامية
د. محمد بن ظافر الحازمي
أستاذ اللسانيات المشارك بالجامعة الإسلامية
د. عبد المجيد بن عثمان اليتيمي
أستاذ أصول اللغة المشارك بالجامعة الإسلامية
أ.د. عبدالله بن عويقل السلمي
أستاذ النحو والصرف بجامعة الملك عبدالعزيز
أ.د. علي بن محمد الحمود
أستاذ الأدب والنقد بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
أ.د. عبد الرحمن بن مصطفى السليمان
أستاذ اللّغات والآداب السامية والترجمة بجامعة لوفان – بلجيكا
أ.د. علاء محمد رأفت السيد
أستاذ النحو والصرف والعروض بجامعة القاهرة – مصر
أ.د. سعيد العوادي
أستاذ البلاغة وتحليل الخطاب بجامعة القاضي عياض – المغرب
د. الزبير آل الشيخ مبارك
(رئيس قسم النشر)

الهيئة الاستشارية

أ.د. محمد بن يعقوب التركستاني
أستاذ أصول اللغة بالجامعة الإسلامية
أ.د. محمد محمد أبو موسى
أستاذ ورئيس قسم البلاغة بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر
أ.د. تركي بن سهو العتيبي
أستاذ النحو والصرف بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
أ.د. سالم بن سليمان الخماش
أستاذ اللغويات بجامعة الملك عبدالعزيز
أ.د. محمد بن مريسي الحارثي
أستاذ الأدب والنقد بجامعة أم القرى
أ.د. ناصر بن سعد الرشيد
أستاذ الأدب والنقد بجامعة الملك سعود
أ.د. صالح بن الهادي رمضان
أستاذ الأدب والنقد ـ تونس
أ.د. فايز فلاح القيسي
أستاذ الأدب الأندلسي بجامعة الإمارات العربية المتحدة
أ.د. عمر الصديق عبدالله
أستاذ التربية وتعليم اللغات بجامعة أفريقيا العالمية بالخرطوم
د. سليمان بن محمد العيدي
وكيل وزارة الإعلام سابقاً

قواعد النشر في المجلة (*)

- أن يكون البحث جديداً؛ لم يسبق نشره.
- أن يتّسم بالأصالة والجدّة والابتكار والإضافة للمعرفة.
- ألا يكون مستلاً من بحوثٍ سبق نشرها للباحث.
- أن تراعى فيه قواعد البحث العلميّ الأصيل، ومنهجيّته.
- أن يشتمل البحث على:

- عنوان البحث باللغة العربية وباللغة الإنجليزية.
- مستخلص للبحث لا يتجاوز (٢٥٠) كلمة؛ باللغتين العربيّة والإنجليزية.
- كلمات مفتاحيّة لا تتجاوز (٦) كلمات؛ باللغتين العربيّة والإنجليزية.
- مقدّمة.
- صلب البحث.
- خاتمة تتضمّن النّتائج والتّوصيات.
- ثبت المصادر والمراجع باللغة العربية.
- رومنة المصادر العربية بالحروف اللاتينية في قائمة مستقلة.

- في حال (نشر البحث ورقياً) يمنح الباحث نسخة مجانية واحدة من عدد المجلة الذي نُشر بحثُه فيه، و (١٠) مستلات من بحثه.
- في حال اعتماد نشر البحث تؤول حقوق نشره كافة للمجلة، ولها أن تعيد نشره ورقيّاً أو إلكترونيّاً، ويحقّ لها إدراجه في قواعد البيانات المحلّيّة والعالمية – بمقابل أو بدون مقابل – وذلك دون حاجة لإذن الباحث.
- لا يحقّ للباحث إعادة نشر بحثه المقبول للنّشر في المجلّة – في أي وعاء من أوعية النّشر – إلاّ بعد إذن كتابي من رئيس هيئة تحرير المجلة.
- نمط التوثيق المعتمد في المجلة هو نمط (شيكاغو).

(*) يرجع في تفصيل هذه القواعد العامة إلى الموقع الإلكتروني للمجلة: http: //journals. iu. edu. sa/ALS/index. html

محتويات العدد

م	البحث	الصفحة
١)	**القاعدة الكلية النحوية عند أبي إسحاق الشاطبي** **المفهوم - السمات - الأقسام- المرادفات** د. أحمد أبكر يوسف مباركي	٩
٢)	**التذكير والتأنيث في القاموس** **دراسة تحليلية في ضوء النقد الرابع والعشرين من كتاب الجاسوس على القاموس** د. مشعل بن عبد الله الهرف	٧٣
٣)	**بلاغة النظم القرآني في سياق آيات السعادة** د. خالد سريان الحربي أ.د. أحمد شتيوي أ.د. أنسام محمد الحسين	١٠٧
٤)	**الفنون البديعية بين الحجاج والإقناع في كوكبة الخطب المنيفة من منبر الكعبة الشريفة لعبد الرحمن السديس خطبة الأمانة نموذجًا** د. سحر مصطفَى إبراهيم المِعَنَّا	١٦٥

م	البحث	الصفحة
٥)	**أساليب دفع التوهم عند البلاغيين** **دراسة بلاغية** د. عايد بن سليم الحسيني	٢٣١
٦)	**ثنائيةُ الحضورِ والغِيابِ** **في دِيوان حديقةِ الغروبِ للشّاعرِ غازي القصيبي** د. زاهر بن حسين الفيفي	٢٨٩
٧)	**النظرية النقدية الحديثة ومشكلة التداخل المعرفي** **(ملاذ الأنسنة وإرادة التطابق)** د. موسى بن درباش الزهراني	٣٢٩
٨)	**الوداع في شعر غازي القصيبي** **دراسة موضوعية فنية** د. حسين بن هادي أحمد العبدلي	٣٧٥

بلاغة النظم القرآني في سياق آيات السعادة

The Rhetoric of Qur'anic Wording Structure in the Context of the Verses of Happiness

د. خالد سريان ساري الحربي
أستاذ النقد الأدبي المساعد بقسم اللغة العربية بجامعة حائل
0009-0007-4625-7492
البريد الإلكتروني:Dr.ksst195@gmail.com

أ. د. أحمد أحمد السيد شتيوي
أستاذ البلاغة والنقد بقسم اللغة العربية بكلية الآداب والفنون بجامعة حائل
أستاذ بقسم البلاغة والنقد بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالمنصورة بجامعة الأزهر
https://orcid.org/ 0009-0006-6909-8941
البريد الإلكتروني: A.shetewi@uoh.edu.sa

أ.د. أنسام محمد خالد الحسين
أستاذ النحو والصرف بقسم اللغة العربية بكلية الآداب والفنون بجامعة حائل
https://orcid.org /0009-0002-6199-9631
البريد الإلكتروني: a.elhoseny@uoh.edu.sa

DOI:10.36046/2356-000-013-011

المستخلص:

يهدف البحث إلى إبراز بلاغة النظم القرآني في سياق آيات السعادة وقد تناولها عدد من الباحثين من وجهات ثقافية ودينية ونفسية، ولم نجد من وقف على آيات السعادة من الجانب البلاغي، والكشف عن أسرار المفردات والتراكيب والتصوير البياني والبديعي بها، فقصدنا دراستها من هذه الوجهة، من خلال النظر إلى سياقاتها المتنوعة.

واختار البحث المنهج الوصفي التحليلي انطلاقا من نظرية النظم الذي ينظر كل مكونات البناء اللغوي، والكشف عن دوره في تحقيق المقصود، ويبدأ بجمع الآيات التي تتضمن فكرة واحدة، ويعالجها بلاغيا، من خلال النظر في المفردات والتراكيب وعلاقات الجمل، وجمال التصوير، واستنباط المعاني. ويقوم البحث على مقدمة وتمهيد وثلاثة مطالب وخاتمة، تتناول المقدمة أهمية البحث، وأسباب اختياره، وأهدافه، وأسئلته، ومنهجه، والدراسات السابقة، وخطته، المطلب الأول: بلاغة المفردات الدالة على السعادة في القرآن الكريم. والمطلب الثاني: بلاغة التصوير في آيات السعادة. والمطلب الثالث: بلاغة التشكيل البديعي في آيات السعادة.

ومن أهم النتائج: تلاؤم الألفاظ والمعاني في الحديث عن أمارات السعادة، وأحوال السعداء في الدنيا والآخرة. جسد التشبيه والمثل المعاني التي تساعد على تحصيل السعادة، كالإنفاق، والتراحم، والعفو والصفح والتلاحم بين بني الإنسان عامة والمؤمن خاصة.

ويوصي البحث بدراسة آيات السعادة من الجانب الاجتماعي والتربوي، وإبراز دورها بناء الفرد والمجتمع.

الكلمات المفتاحية: النظم ـ السعادة، ـ البلاغة القرآنية، السياق، ملامح الجسد.

Abstract:

The research aims to highlight the rhetoric of the Qur'anic wording structure in the context of the verses of happiness, and a number of researchers have dealt with them from cultural, religious, and psychological perspectives. We did not find anyone who focused on the verses of happiness from the rhetorical aspect, and to reveal the secrets of the vocabulary, structures, and creative eloquence and the stylistics aspect of them, so we intended to study them from this point of view, by looking at its diverse contexts.

The research chose the descriptive analytical method based on wording structure theory, which looks at all components of the linguistic structure and reveals its role in achieving the intended purpose. This begins by collecting verses that contain a single idea, and treats them rhetorically, looking at vocabulary, structures, sentence relationships, the beauty of imagery, and deducing meanings. The research is based on an introduction, a preamble, three topics, and a conclusion. The introduction addresses the importance of the research, the reasons for choosing it, its objectives, its questions, its approach, previous studies, and its plan. The first topic: the eloquence of the vocabulary indicating happiness in the Noble Qur'an. The second topic: the eloquence of dipicting in the verses of happiness. The third topic: The eloquence of rhetorical formation in the verses of happiness.

Among the most important findings: the compatibility of words and meanings in talking about signs of happiness, and the conditions of happy people in this world and the hereafter. The simile and proverb embody the meanings that help to achieve happiness, such as spending, compassion, forgiveness, and cohesion between human beings in general and the believer in particular. The research recommends studying the verses of happiness from the social and educational aspects, and highlighting its role in building the individual and society

Keywords: wording structure - happiness - Quranic rhetoric, context, features of the body.

المقدمة

السعادة غاية ينشدها كل بني الإنسان، وعنوانها الفرح في القلوب، والرضا، وراحة البال، واعتدال المزاج، وحدد القرآن الكريم المفهوم الحقيقي للسعادة، وألفاظها ومرادفاتها، وسبل الحصول عليها في الدنيا والآخرة، وقد تنوع فهم الناس للسعادة فمنهم من يحصرها في الدنيا بلذاتها الحسية، ويسعى لتحصيلها بأي صورة على حساب دينه، وعلى حساب الآخرين، ومنهم من يربطها بالإيمان بالله تعالى، والاستعانة به على العمل الصالح، ونشر المحبة والألفة، وحسن الخلق، والتعامل بالحُسنى مع الأقرباء والجيران بالقول، والتغافل والعفو والصفح والاعتذار، ومقابلة الإساءة بالإحسان والتواضع، ولين الجانب، وتهذيب النفس، وتفعيل رقابة الضمير في السر والعلن، والتحكم في الغضب والانفعالات، والسيطرة عليهما، واجتناب كل ما يسبب الألم النفسي والحسي، ونشر نعمة الأمن الذاتي والمجتمعي، ودعوة الناس للتآخي والتحابب كل هذا عامل فعَّال لتحصيل السعادة للنفس وللآخرين، بشرط ربطه بالإيمان بالله تعالى، والاستعانة به على العمل الصالح، والنفع للنفس وللآخرين، وشفاء الصدور، دليل الراحة وحصول السعادة التي تكون بتقوى الله تعالى، والعمل الصالح، وتربية الضمير، وتزكية النفوس، وتعميق الإيمان في القلوب. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٥٨ ﴾ [يونس: ٥٧. ٥٨]

فالمؤمن يطلب الدنيا ليتوصل بها لسعادته الباقية، ويتعاطى الأسباب المشروعة، بلا غفلة عن مقصده، الذي يسعى لتحقيقه ذاتيا ومجتمعيا، متوسلا بكل شيء من أجل فعل الخير، وتقديم يد العون واكتساب الأجر.

والقرآن الكريم يحث الناس على فعل ما ينفع المرء، ويجلب السعادة لنفسه وللآخرين في إطار الدين والأخلاق والسلوك، كما بين أن السعادة تنسحب على

المجتمع بالأفعال النبيلة، والخصال الحميدة، وتقديم العون، والبعد عما يؤذي الآخرين، ويجرح مشاعرهم، وعبر القرآن الكريم عن هذا المعاني بألفاظ محكمة، ونسج بياني جاذب، وتأليف بديعي في ثوب قشيب، ونسج معجز، ولا تتكشف المعاني المرادة إلا بالنظر للسياق والمقام.

وترجع أهمية البحث إلى اختلاف مفهوم السعادة قديما وحديثا، دور البلاغة القرآنية في الكشف عن مفهوم السعادة، تنوع مقام آيات السعادة في القرآن الكريم، الوقوف على خصائص المفردات والتراكيب والصور في أوصاف السعداء في الدنيا والآخرة.

أسباب اختيار الموضوع

- عدم وجود دراسة ـ فيما نعلم ـ تناولت آيات السعادة في القرآن الكريم من الوجهة البلاغية؛ وكشفت عن بلاغة الألفاظ والتراكيب وجمال التصوير البياني، والتشكيل البديعي فيها.
- كثرة الآيات التي تناولت الحديث عن السعادة بصورها المختلفة، وعبرت عنها صراحة وضمنيا.
- الرغبة في تحديد مفهوم السعادة وسبل الوصول إليها، من خلال خصائص النظم القرآني، والاحتكام للسياق والمقام.

مشكلة الدراسة:

هناك سؤال رئيس يمكن الانطلاق منه وهو كيف عبر النظم القرآني عن مشاعر السعادة؟

وينبثق منه عدة أسئلة فرعية

ما مقامات السعادة لفظا ومعنى في القرآن الكريم؟

ما الألوان المعبرة عن السعادة؟

ما بلاغة النظم في اختيار المفردات والتراكيب في آيات السعادة؟

ما خصائص الصور البيانية والبديعية في آيات السعادة في القرآن الكريم؟

أهداف الدراسة:

تهدف الدراسة إلى بيان ما يلي:

إبراز بلاغة النظم في سياق آيات السعادة في القرآن الكريم.

بيان خصائص المفردات والبنى التركيبية والتصويرية والصور البديعية في آيات السعادة في القرآن الكريم.

أثر العلامات غير اللفظية في التعبير عن السعادة وعكسها.

أثر السياق والمقام في الكشف عن بلاغة القرآن الكريم في آيات السعادة.

منهج الدراسة:

ويقوم البحث على دراسة آيات العادة وفق نظرية النظم، حيث نتناول الآيات التي تتضمن فكرة واحدة، ومعالجها بلاغيا، من خلال النظر إلى المفردات والتراكيب وعلاقات الجمل، وجمال التصوير، واستنباط المعاني.

الدراسات السابقة:

بعد اطلاعنا على الدراسات السابقة حول آيات السعادة في القرآن لم نجد ـ على حد علمنا ـ دراسة تناولتها من الناحية البلاغية فقصدت الوقوف عليها، والكشف عن الأسرار البلاغية بها.

ومن الدراسات السابقة:

١. مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة لابن قيم الجوزية دار العلم للملايين بيروت لبنان ١٤١٩هـ ١٩٩٨م والكتاب يعنى بالوعظ والإرشاد.

٢. رسالة ماجستير غير مطبوعة بعنوان (سعادة الإنسان في القرآن الكريم دراسة موضوعية) إعداد/ رهيفة موسى قدورة إبراهيم، مقدمة لقسم التفسير وعلوم

القرآن بالجامعة الإسلامية بغزة، ١٤٣٠هـ ٢٠٠٩م.

٣. السعادة مفهومها وأنواعها وسبل تحقيقها، دراسة موضوعية في القرآن الكريم، إعداد، محمد عبد الرحمن جعفر، مجلة الجامعة الإسلامية العدد ١٦٨، من ص ٣٢٣- ٤٩٨.

والدراسات السابقة تدور في باب التفسير الموضوعي، والوعظ والدعوة والإرشاد، ولا تلتقي مع بحثنا الذي يهتم بدراسة ببلاغة النظم القرآني في سياق آيات السعادة.

خطة البحث:

يقوم البحث على ثلاثة مطالب بعد المقدمة والتمهيد. المطلب الأول: بلاغة المفردات الدالة على السعادة في القرآن الكريم. المطلب الثاني: بلاغة التصوير في آيات السعادة. المطلب الثالث، بلاغة التشكيل البديعي في آيات السعادة. ثم الخاتمة.

التمهيد:

مفهوم السعادة:

السعادة في اللغة: ضدُّ الشقاوة والشقاء[١]، يقال: فلان سعيد، أي ضد الشقي. والسعد: اليمن[٢].

وفي الاصطلاح: "إحساس وشعور يحقق الإشباع النفسي، والرضا الحسي ومتعة الحياة"[٣]. ولحظ التلاقي بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي، وهو: "الشعور المستمر بالغبطة، والطمأنينة، والأريحية، والبهجة، وهذا الشعور السعيد يأتي نتيجة للإحساس الدائم بخيرية الذات، وخيرية الحياة، وخيرية المصير"[٤]. والسعادة: بلوغ الإنسان الكمال العقلي بما يصل إليه الإنسان بالمعرفة، والكمال الروحي الذي يتمثل في ترتيب قوى النفس وإخضاعها للقوى الناطقة للعقل، فتصبح قوى الشهوة في أدنى المراتب. وعند الصوفية تسمو السعادة عن اللذة الجسدية والحسية[٥].

وقيل: هي الغاية القصوى للعمل، والمنفعة هي اللذة والسعادة، و "هي وحدها الخير الأقصى أو المرغوب فيه لذاته؛ أي أن الفعل الإنساني لا يكون خيرا إلا متى تحقق أو توقّع صاحبه أن يحقق أعظم قدر ممكن من اللذة"[٦]. هذا وقد ورد لفظ السعادة

(١) لسان العرب لابن منظور ، مادة: ش ق ا.
(٢) مختار الصحاح لأبي بكر الرازي، مادة س ع د ، ص١٢٦مكتبة لبنان ط٢، ١٩٩٢م.
(٣) فن السعادة ومتعة الحياة، د. أحمد توفيق حجازي، ص١٣.
(٤) السعادة بين الوهم والحقيقة، ناصر بن سليمان العمر ص ٣.
(٥) السابق ، ص١٤. وينظر: وسبيل السعادة ليوسف الدجوي ص٥٨.
(٦) مذهب المنفعة العامة في فلسفة الأخلاق، د. توفيق الطويل، ص ٢٢.

صريحا في القرآن الكريم: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [هود:١٠٨]. ارتبطت السعادة بالجزاء بنعيم الجنة، ورضوان الله ولقاؤه، والتيسير له.

ويوجد اتفاق بين الدين وعلم النفس في أن السعادة غاية كل إنسان، ومطمحه الأسمى، لكن يوجد ثمة خلاف في عوامل وجودها وسبل الحصول عليها [١]. والسرور أطول مدى ومرتبط بالعواطف وهو جانب نفسي لا مادي، نحو مقابلة ولقاء قريب وشفاء مريض عزيز عليك، ودائرته ضيقة والمعاني الإنسانية فيه ضعيفة، أما السعادة فإنها أوسع دائرة وأعمق أثرا وأطول عمرا[٢]، و"السعادة هي الحالة الذهنية للقناعة، وهي نتيجة الملاءمة الناجحة مع العالم على حقيقته، والإنسان مفيد ومساهم في سعادة الآخرين"[٣].

فالسعادة تعبِّر عن المعاني الإنسانية بشكل أوسع، وهي ترجمة عملية لنزعات الإنسان وميوله، وهي ترتبط بأعلى درجات التكافل الخلقي، وتحقيق الأغراض السامية التي لا تتعارض مع صالح الإنسانية، كالأنبياء والرسل عليهم السلام الذين ارتبطت حياتهم بكفاح طويل الأمد كلفهم الحرمان والاغتراب والهجرة فلم يثنهم ذلك ولا حتى الموت عن تحقيق رسالتهم.

وتحقيق السعادة يتطلب توفير الأمور والأشياء التي تحقق الاستقرار النفسي والاقتصادي والاجتماعي والجسدي، وهذا يعني تأمين أسس الحياة الاقتصادية الكريمة،

(١) ينظر: نفوس ودروس في إطار التصوير القرآني الأستاذ توفيق محمد سبع ١/ ١٨٤.
(٢) الصحة النفسية د القوصي، ص٢١.
(٣) سبيلك إلى السعادة والنجاح، سمير شيخالي، ، ص ١٢٤.

وتوفير الأمن بكل معانيه وإطلاق المجال للإبداع والتفنن[١]، كما تكون السعادة بالحصول على ما ينفع به المرء نفسه، وينفع الآخرين من قول أو فعل إيجابي، وكذا الترفع عن القول السلبي، والفعل المسيء والإنسان يعيش في عالم من الرخاء، والفقر والحرمان ليس لهما وجود إلا في ذهنه، وكل العالم في متناول يده، وليس عليك سوى إدراكه.

والسعادة المعنوية لا يسبقها ألم، ولا يعقبها ضرر، ولا يشوبها كدر، ولا يخشى لها نفاذ فهي الصافية الدائمة، بل هي اللذة الحقيقية المطلوبة لذاتها، وهي مناط السعادة والراحة[٢].

والسعادة الحقيقية معنوية، تنبع من ذاتنا، فلا تُرى بالعين، ولا تُقاس بالكم، وثمنها غال تقدمه بإيمانك وأخلاقك وسلوكك، وكل شيء في إطار الشرع، والتركيز على الجانب الجميل، فلا تذم أحدا، ولا تنتقص من قدره، واترك الحسد والبغضاء، والنميمة، فلا تسخر من أحد، أو تنتقص من قدره، وترفع عن كل ما يؤذي الآخرين، ويجرح مشاعرهم، وتخير الأوقات التي تكون فيها نافعا للناس، وتخير الوسائل التي تتوافق مع استعداداتك الشخصية، واجعل الابتسامة ديدنك، والبهجة والتعاطف شعارك، ولين الجانب من ممارساتك، وأظهر المودة لأخيك دينيا أولا وإنسانيا ثانيا ما استطعت إلى ذلك سبيلا، وارض بما قسم الله لك، ولا تأل جهدًا في طلب الرزق الحلال، واطلب الأشياء بعزة النفس.

وتتحقق السعادة بمكارم الأخلاق المتمثلة في تقوى الله، وصلاح العقيدة، ومراقبته في السر والعلن، والاستقامة السلوكية، وسلامة القلب من الضغن والحسد، والإيثار،

(١) ينظر: فن السعادة ومتعة الحياة، ، ص١٣.

(٢) ينظر: سبيل السعادة ليوسف الدجوي ، ص٥٨.

والرضا بما قسمه بلا تقاعس، أو تواكل، وبمساعدة الآخرين معنويا وحسيا، عطاء للخير، ومنعا للشر، وطلب الأجر من رب العالمين، وتحصيل المال أحد الطرق الموصلة للسعادة، وليست كلها، وعلى العاقل أن يأخذ منه بقدر؛ والعمل على السعادة الدائمة، بتقديم الأهم على المهم، فالتفاخر بالمال والجاه والأعوان والأقرباء تفاخر بأخس مراتب السعادة، بدلا من الاشتغال بأشرفها، والاشتغال بها يمنع الإنسان من تحصيل السعادة الروحية التي تكون بالعلم والعمل الموافقان للشرع، وهذا عكس الواجب ونقيض الحق، كما أن جمع المال، واللهث وراء الدنيا بلا ضابط أو معيار، بل والاغترار بالدنيا قد يكون سبب التعاسة، وجاء هذا في أسلوب النهي في قوله سبحانه﴿ وَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَأَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ٨٥﴾ [التوبة:٨٥]. وقَالَ تَعَالَى:﴿ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ ١٤﴾[التغابن:١٤]، وجاء التعبير مؤكدا؛ لإزالة من يشك في هذا التوضيح، ودل القصر على التوكيد.

والسعادة فرح القلوب، وصفاء الصدور، وطمأنينة القلب، وكل ما يُدخل السرور والرضا، والسكينة، والأمل، وهي غاية يبحث عنها كل إنسان أينما حل أو ارتحل، ويبذل كل طاقته لتحصيلها، فهو يسعى دائما لراحة البال، والطمأنينة. ومن موجبات السعادة الإيمان الخالص لله رب العالمين، والطهر والعفاف والكرم والوفاء والرحمة والرفق واللين، والقناعة، والتضحية من أجل الآخرين، وتفريج الهموم عنهم، والترفع عن الرذيلة بكل صورها، والتغلب على أهواء النفس، وعدم الاستجابة للانحرافات الفكرية، والغرائز البهيمية.

ومن الألفاظ التي تدل على السعادة في القرآن الكريم وتكون في الدنيا والآخرة:

قرة العين، والبهجة، والهناء، واللذة، والرَّوح، والسكينة والطمأنينة والأمن، وثقل الميزان يوم الحساب، وغيرها كما يعبر عن السعادة بالإشارات الحسية، كأخذ الكتاب باليمين يوم القيامة، وبياض الوجه. والقرآن يدعو إلى تحقيق السعادة، ويرسم الطريق للوصول إليها، وهي نعمة يسديها الله لعباده المؤمنين، كما يبين الشقاء وطريقه وعلاماته ليبتعد المرء عنه، وينشد الخير في كل زمان ومكان.

الاختيار: الخصوصية، ويعنى في أسلوب القرآن انتقاء اللفظ الدقيق الملائم للمعنى، فيحدث التوافق والانسجام، وتتكامل البلاغة والفصاحة، ولهذا نجد العناية الفائقة في اخيار اللفظ القرآني، بدأ بمكونات حروفه، مرورا باتساقه مع جملة الآية والصورة، فيعطي إيحاء نفسيا وشعوريا ودلاليا، وتقديم المعنى المقصود بيسر وسهولة؛ ولهذا لا يمكن تبديل اللفظ أو أحد حروفه في القرآن؛ لأن هذا يؤدي إلى قصور في الدلالة، وغياب المناسبة، والسياق القرآني يختار الألفاظ التي تلتحم به التحاما، فيبلغ الكمال، ويجسد المعنى تارة بجرسه وأثره على السمع والقلب، وتارة بإيحائه وظلاله الممتد في الوجدان، أو بهما معا، وهذا هو الغالب(١).

الرتبة: موقع اللفظ في داخل التركيب، قد يكون محفوظا وثابتا، وقد يكون حرًا تبعا للمعنى الذي يؤديه، والمقام الذي يسيطر عليه، ويدرس هذا في باب التقديم والتأخير، فترتيب الكلام يأتي وفق ترتيب المعاني، ومن خصائص النظم القرآني يعطي حرية في ترتيب الكلام بما لا يتوفر في كلام آخر.

مراعاة المقام: يعني العوامل المحيطة بالنص من دلالات لفظية ومعنوية، وهي معين

(١) ينظر: من الإعجاز البلاغي للقرآن، د. صباح دراز، مصر دار التوفيقية للطباعة، ب. ت، ١٩٨٠. ص ١٠. ١١.

قوي للدلالة على المعاني، والكلام البليغ هو ما يتنزل وفق المقام، والناظر في آيات السعادة يجد الألفاظ والعوامل المحيطة، كسياق القول وسياق اللفظ قد ناسبتها تمام التناسب.

المطلب الأول: بلاغة الكلمة في آيات السعادة:

اللفظة هي البنية الأساسية للكلام، وتظهر الدلالات الفارقة إذا وضعت مع ما يلتقي معها في المعنى العام من خلال السياق، يقول الإمام الخطابي: "اعلمْ أنَّ عَمُودَ هذه البلاغة ... هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلامِ موضِعَه الأخَصَّ الأشكلَ به، الَّذي إذا أُبْدِلَ مكانَه غيْره جاءَ منْهُ: إمَّا تبدُّلُ المعنى الذي يكونُ منه فسادُ الكلامِ، وإمَّا ذهابُ الرونقِ الذي يكونُ معهُ سقوطُ البلاغةِ، ذلك أنَّ في الكلامِ ألفاظًا متقاربةً في المعاني يحسَبُ أكثَرُ الناسِ أنَّها متساويةٌ في إفادةِ بيانِ الخطابِ.....والأمرُ فيها وفي ترتيبها عند علماءِ أهلِ اللغةِ بخلافِ ذلكِ؛ لأنَّ لكلِّ لفظةٍ منها خاصيَّةً تتميَّزُ بها عن صاحبتها في بعضِ معانيها، وإن كانا يشْتركان في بعضها"(١).

هذا بيان لجوهر الألفاظ وبلاغة الخطاب المؤثر، وبيان الحدود الفاصلة بين المعاني المتشابهة، والتأكيد على أن خصوصية دلالة الألفاظ ينبع من السياق والمقام والمقصد. والألفاظ في القرآن الكريم ترسم بحرسها وإيحاءاتها المقاصد والغايات، والمقام له دور فاعل في اختيار الألفاظ الملائمة للسياق وفق بناء لغوي في بنية النص، يقول الخطابي: "إن اختيار اللفظ، وإحلاله في الموقع المناسب في السياق هو أساس البلاغة، والإحسان في البيان، فإن إحدى اللفظتين قد تنفرد في موضع، وتزل عن مكان لا تزل عنه اللفظة الأخرى، بل تتمكن فيه، وتضرب بجرانها، وتراها في مظانّها، وتجدها غير منازعة إلى

(١) رسالة في بيان إعجاز القرآن للخطابي ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص ٢٩.

أوطانها، وتجد الأخرى لو وضعت موضعها في محل نفار، ومرمى شراد، ونابية عن استقرار"[١].

وهذا ما أكده الباقلاني في حديثه عن الاتساق والانسجام في آي القرآن من خلال اختيار الألفاظ ومناسبتها للمعاني، وتسلسها، وتناغمها مع الموضوع، وملاءمتها للمقاصد، فكانت أدل على المراد[٢].

ويؤكد عبد القاهر على المعنى السابق قائلا: "وتختارَ له اللفظَ الَّذي هو أخصُّ به، وأكشف عنه، وأتمُّ له، وأحرى بأن يكسبه نُبْلا ويظهرَ فيه مزيَّةً"[٣] هذا تأكيد عل خصوصية دلالة الألفاظ في سياقها ومقامها.

وقد أكد ابن عطية في مقدمة تفسيره على هذا المعنى قائلا: "كتاب الله لو نزعت منه لفظة، ثُمَّ أُدير لسان العربِ في أن يوجد أحسن منها لم يوجد"[٤]، والكلمة القرْآنية بهيئتها وصيغتها لها في سياقاتها دلالات عدة تنبثق من الأبعاد المحيطة، والمقصد العام، ويتضح لك من خلال النماذج التي نقف عليها.

تطمئن، الطمأنينة[٥]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ

(١) إعجاز القرآن للباقلاني ، مصر، دار المعارف ط٥، ص، ٢٢٠.

(٢) ينظر: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص٣٥. ٣٦.

(٣) دلائل الإعجاز ، لعبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه، محمود محمد شاكر، ص ٤٣.

(٤) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي. ١/ ٤٩.

(٥) الطمأنينة والاطمئنان: السكون بعد الانزعاج.

ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾[الرعد:٢٨-٢٩]. قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾[الأنفال:١٠]. قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾ [آل عمران: ١٢٦]. قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ ﴾ [الفجر:٢٧-٣٠]. تدل الكلمة بجرسها العذب، وصوتها الشجي، وسحرها الخلاب على سمو معناها، ومناسبتها لسياقها، فقصودها غاية يسعى كل إنسان أن يحصل عليه، ويتحرى مقامها، ويدندن حول طرقها عله يظفر بهذه القيمة النبيلة، مهما كلفه ذلك، وطمأنينة القلب هي الزاد الفاعل لمصير الإنسان وأغلب مقاماتها في الدنيا، وحصولها في الآخرة من أثر الأفعال الطيبة في الحياة، وهي عنوان السعادة الحقيقية. وجاءت صيغة "الطمأنينة" في ثماني مرات في القرآن الكريم، اختص خمسة منها بالإسناد إلى القلوب في مقام الوعد بالنصر، واقترنت طمأنينة القلب بالبشرى في آيتي آل عمران والأنفال، وتعانقت مع المآب في آية الرعد، وبالأمن من الخوف في آيتي النحل والنساء، أما في آية الفجر فاقترنت النفس المطمئنة بالرضى.

ويلحظ الربط بين المقدمة والنتيجة، (الاطمئنان) و(ذكر الله)، وفي هذا دلالة على حدوث الأنس بالله، والتحول الإيجابي، وكلمة (تطمئن) دليل الراحة النفسية، والتعبير بالفعل المضارع؛ فيه دلالة على تجدد الطمأنينة بتجديد دواعيها، والكلمة ترسم

صورة مكتملة الأركان من خلال إيحائها وخصائصها، و"طمأنينة القلوب" هي الاستكانة والسرور بذكر الله، والسكون به كمالاً به. ورضى بالثواب عليه وجودة اليقين، ثم جاء الإخبار بأن طمأنينة القلوب بذكر الله تعالى، وفي هذا حض وترغيب على الإيمان، والمعنى: أن الطمأنينة لا تكون إلا بذكر الله لا بغيره(١)، والطمأنينة مرتبطة بجودة الحياة والإقبال عليها، ومن أثرها هدوء المشاعر، ومعرفة الطريق الصحيح، والقدرة على مواجهة العقبات المادية، والتخلص من أدران الآثام، والقيادة الحقيقية للنفس، وإحياء مراقبة الضمير، والترفع عن الزلات، والتوجه نحو الخير. فقراءة القرآن تشرح الصدور وتستبشر له النفوس، وتكسبها الراحة والطمأنينة، ومن هنا جاء الربط بين الفعل والنتيجة، وفي هذا حث على توظيف المقدمات الموصلة للنتائج المحققة بإذن الله. ويلحظ التناسق المحكم بين الصيغ في الآية، ففي كلمة "طوبى" دلالة على الغبطة، وقيل: أصبت خيرا وطيبا(٢)، وفي قوله "وحسن مآب" تأكيد على المعنى، وقد تناسقت لفظة "طوبى" تناسقا فنيا نابعا من التجاوب النفسي، وهو سريان المعنى بانشراح، وهذا يتسق مع السياق العام(٣).

ومن مقامات حضور الطمأنينة ودلالات السعادة في الدنيا الانتصار على الأعداء، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ ﴾[آل عمران:١٢٦]. هذا بيان لإحساس المؤمنين بالنصر الماثل لهم يوم بدر، فقد كستهم الطمأنينة والسعادة والسكون والدعة التي

(١) ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية، ٢/ ١٧٤.
(٢) الكشاف ٢/ ٢١.
(٣) ينظر: الإعجاز الفني في القرآن، عمر السلامي، ١٦٧، ١٦٨.

حلت بهم من الله تعالى؛ ليثق به المؤمنون، ولا يقنَطوا منه عند فُقدان أسبابِه وأماراتِه، فقد سكنت قلوبهم بعد أن أمدهم الله سبحانه بإنزال الملائكةِ[١]، وتدل آية الأنفال على المدد الإلهي لأهل بدر بإنزال الملائكة عياناً لا لشيء من الأشياء إلا للبشرى لكم بأنكم تنصرون، وَلِتَطْمَئِنَّ قلوبكم، بالإمداد، وتسكنَ إليه نفوسُكم، وفي قصر الإمدادِ عليهما في الآيتين إشعارٌ بعدم مباشرةِ الملائكةِ للقتال، وإنما كان إمدادُهم بتقوية قلوب المباشرين وتكثيرِ سوادِهم، وقيل: وما جعله الله إلا بشارةً لتطمئن به قلوبكم ، وجاء التذييل "إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ" للإشعار بأن النصرَ الواقعَ على الوجه المذكورِ من مقتَضَيات الحِكَم البالغةِ[٢].

ويلحظ دور السياق في بيان الذكر والحذف التقديم والتأخير والتأكيد من عدمه في المتشابه القرآني بين آيتي آل عمران، والأنفال، رغم اتحادهما في المقصود، والفئة المتحدث عنها، وهم أهل بدر، فالآية الأولى مسبوقة بالحديث عن العدو ﴿وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا ﴿١٢٥﴾﴾ [آل عمران:١٢٥]، واختلط ذكر الطائفتين، وضمهما كلام واحد، فجاءت البشارة لمن هدى منهما، وأنها لأولياء الله المؤمنين، واتصل ضمير خطابهم بلام الجر المقتضية الاستحقاق فقيل "بشرى لكم"، وبين أن قلوبهم هي المطمئنة بذلك فقيل "ولتطمئن قلوبكم به"، بخلاف آية الأنفال فلم يتقدم ذكر لغير المؤمنين فلم يحتج إلى الضمير الخطابي في لكم. وتقدم في آية الأنفال وعود كثيرة، ومنها قوله تعالى: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾ [الأنفال: ٨] ، ولم

(١) تفسير أبي السعود ، ٢/٨١.

(٢) السابق، وينظر التحرير والتنوير ٣/ ٢١١.

يتقدم في آية آل عمران، ولهذا ناسب تأكيد الوصفين العظيمين من قدرته سبحانه على كل شيء، وحكمته في أفعال "إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ"[1] ، وبهذا ينساب كل بناء لغوي الدلالات المقصودة، أما آيات الفجر فتحكي السعادة الدائمة والراحة النفسية، بعد برد اليقين، وحلاوة الإيمان، وهذا تحول إيجابي يتعلق بالقلب وبالنفس، ويرسم النهاية السعيدة للمؤمن الحق.

النفس المطمئنة

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ ﴾[الفجر: ٢٧ . ٣٠]. الآيات بشارة للمؤمنين بما وعدوا به، جزاء عملهم وإخلاصهم في الدنيا، فمن كان قصده لله، وأعماله له، واطمأن بذكره، وأناب إليه، وسكنت نفسه بالتصديق لما جاء به القرآن كانت له البشرى والسرور. وجاء قوله تعالى واصفا حال من اطمأن إلى معرفة الله تعالى، وعبده حق عبادته، مبينا حاله بعد الموت. الاطمئنان هو: الاستقرار والثبات، فلا يخالجها شك ولا يستفزها خوف ولا حزن، وحقيقة الطمأنينة: السكون والاستقرار، وإذا سكنت النفس إلى ربها، وطاعته وأمره وذكره، ولم تسكن إلى سواه، فقد اطمأنت إلى محبته، وعبوديته وذكره، واطمأنت إلى أمره ونهيه وخبره، واطمأنت إلى لقائه ووعده، واطمأنت إلى أن الله وحده ربها ومليكها ومعبودها ومالك أمرها كله، وأن مرجعها إليه وأنها لا غنى لها عنه طرفة عين[2]،وأن السكينة لا تحصل إلا بذكر الله، وقوله "فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى" إشارة إلى أن السعادة الروحانية دائمة وغير متراخية عند الموت؛ فهي أفضل

(١) ينظر: ملاك التأويل للغرناطي، ١/ ٣١٤. ٣١٥.

(٢) ينظر: طب القلوب عند الإمامين الجليلين ابن تيمية الحراني، وابن قيم الجوزية، ص٣٦٦.

من السعادة الجسمانية ولذا عطفها بفاء التعقيب، بخلاف الجنة الجسمانية لا يحصل الفوز بها إلا بعد قيام القيامة الكبرى، فقال: "وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي" فذكره بالواو لا بالفاء[١]. ويلحظ تعانق الألفاظ والمعاني في الآيات السابقة، وسريان الراحة النفسية بها، فضلا عن الانسجام الذي يغمر الكون بالدعة والتعاطف، كما نلمح انسيابية الألفاظ في الأداء والجرس والمعنى.

وجل القلوب

السعداء هم من تحقق فيهم الإيمان الحقيقي، **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٤ ﴾ [الأنفال ٢-٤] يدل الفعل "وَجِلَتۡ" على الهيبة والاستعظام الممتزج بالرجاء والخوف والإنابة، فالخوف من عقاب الله يدفع المؤمن إلى تجنب الوقوع في المعاصي، ويقابله التمسك بالتقوى، والتقرب إلى الله بالعبادة والإخلاص، كما أن المؤمنين قلوبهم وجلة بذكر الله دائما[٢]، وإذا ما قرأوا القرآن تهيبوا لجلاله، وازدادوا يقينا وطمأنينة، وقد جمعت الآية بين "أعمال القلوب من الخشية والإخلاص والتوكل، وبين أعمال الجوارح من الصلاة والصدقة"[٣]. وفي الآية دلالة على الترقي الشعوري، والزيادة في الإخلاص

(١) ينظر : تفسير الكبير للرازي ١٢/ ٢٤ والتحرير والتنوير لابن عاشور، ١١/١١٤. ١١٥.
(٢) القرآن وانفعالات الإنسان د. عاطف المليجي، القاهرة ٢٠٠٢، ص ١٤.
(٣) الكشاف للزمخشري، ٢/ ١٩٦.

والتقوى، فهؤلاء المؤمنون يتقربون إلى الله، أملا في رضاه تعالى، وابتغاء مرضاته، فيزدادون اطمئنانا في القلب، ورسوخا في اليقين، أي بإيمانهم بها وبما حصل لهم من نور القلب وطمأنينة اليقين بسببها، فإنها هي الدالة على الله بما تبين من عظيم أفعاله ونعوت جلاله وجماله، وتظاهر الأدلة أقوى للمدلول عليه، وكمال قدرة الله تعالى إنما يعرف بواسطة آثار حكمته في مخلوقاته، وذلك بحر لا ساحل له، ولما كانت المراتب لا نهاية لها، كانت مراتب التجلي والمعرفة لا نهاية لها، فالزيادة في أشخاص التصديق، ويدل التذييل: "وعلى ربهم يتوكلون" على تجديد إسناد أمورهم إليه مهما وسوس لهم الشيطان بالفقر أو غيره ليكفيهم من حيث لا يحتسبون، فإن خزائنه واسعة، ويده سحاء الليل والنهار، كما أنهم لما توكلوا عليه في القتال نصرهم وقد كانوا في غاية الخوف من الخذلان، وكان حالهم جديراً بذلك لقلقهم وخوفهم وقلتهم وضعفهم[1]، كما يبرز الترقي من عمل الباطن إلى عمل الظاهر، للدلالة على رفعة ارتفاع همتهم في العبادة والتقرب إلى الله.

التقوى:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۖ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ﴾ [آل عمران :١٤.١٥] الآيتان بيان حقيقي لمفهوم السعادة التي تغمر أهل الحق والإيمان،

(١) ينظر: نظم الدرر ٣/ ٣٣٤.

الذين وجهوا أنفسهم إلى القيم الخالدة، حيث المستقر الدائم، والنعيم الباقي، وترفعوا عن الحرص والطمع في الدنيا الزائلة، وأعراضها الفائتة، وعدم إطلاق النفس على شراهتها. وفي هذا دعوة للترفع عن الدنيا ومتاعها الزائف، وأن المؤمن الحق هو من يعمل على تقوى الله، ويؤثر ما يبقى على ما يفنى، ويتحمل الشدائد لتنفيذ تكاليف الحق، ويزهد في عرض الدنيا الزائف، ويعمل للجزاء الدائم، والسعادة الحقيقية، وكشفت الآية الأولى طبيعة الإنسان، فهي تميل للزينة والمتاع، ثم عدد الأشياء المحببة للإنسان التي يسهل الحصول عليها بلا مجاهدة (ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَـٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ وَٱلْحَرْثِ)، وهذه كلها لا تحقق السعادة الأبدية؛ ولهذا عبر عنها بقوله (ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)، أما ما عند الله فهو الأبقى والأنفع، وقد ترقى في بيان المقصود من خلال الانتقال المفاجئ بقوله (قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم)،وفي هذا تشويق نابع من الاستفهام والفعل بعده، فالنبأ هو الأمر العجيب، وهذا ما يثير النفس للتطلع والشغف للجواب، وفي هذا انتقال من جو الماديات وما تعكسه من أضواء براقة إلى أفق جديد تشع منه أضواء الهداية، والمعنى دعوا عنكم ما مضى واستمعوا إلى الأفضل والأعمق في إسعاد الأرواح، وبهذا تضافرت وسائل التشويق والإثارة النفسية إلى المطامع السامية، وجذبها من أفق الظلمة المادية المتمثلة في مطالب الدنيا إلى أفق ملؤه الصفاء والطهر وهو الجانب الروحي. وفي التعبير بـ"مِّن ذَٰلِكُمْ" دلالة على جمع كل ما سبق من المطالب المادية التي عددها في الآية، وطيٌّ لها في كلمة واحدة "ذلكم" حيث تشير إلى ما فصّلته الآية، وهذا يترك في نفس المؤمن انطباعا بأن هذه اللذائذ مهما تكاثرت فهي قليلة بالنسبة لآثارها، ومهما تعددت فهي ضئيلة النفع، وعاجزة عن المدد الواسع. وبهذا عبر القرآن بما يساوق طبيعة النفس البشرية وتطلعاتها من خلال

الترقي فيما يحقق لها رغبتها من حاجات الدنيا، ثم عدل عن ذلك كله لبيان ما يجب أن ترنو إليه النفس، وتشتاق إليه حيث السعادة الدائمة، ويلحظ التقابل بين الجانب المادي والجانب الروحي، فالنساء يقابلها الأزواج المطهرة، والحرث يقابله جنات تجري من تحتها الأنهار، والخيل والأولاد لا وجود لها هناك حيث رضوان الله أبهى وأروع من كل شيء، ويمكن القول متاع الحياة الدنيا كله يقابله رضوان الله ومرضاته، وإن كانت المقارنة غير موجودة أصلا، فأين القيم المادية بالنسبة لنعيم الله ورضوانه؟!!

ويقف الرافعي على الحكمة من الترتيب العجيب في الآية: فالنساء شهوات من الغريزة والعاطفة، والبنين شهوات من العاطفة والنفس، والمال الكثير من النفس فقط، والخيل المسومة جاءت بعد النساء والبني لكونها لاحقة بالغريزة والعاطفة والنفس، ويدخل فيها ما يقتضي المباهاة والزينة(١). وفي الآية توضيح لما يجب أن يكون محل اهتمام والعمل له، فرغبات الدنيا وإن خطفت الأبصار، وسحرت الألباب لكنها زائلة وفانية ومنتهية بخلاف ما يجب أن يكون مطمحا للنفوس الكريمة وما بها من إشعاع يغمر الأرواح. ويلحظ التعبير عن مطالب الجسد، بـ (الزينة الشهوات القناطير المقنطرة . الخيل المسومة) وهي تناسب مغريات الدنيا وماديتها، وفي الجانب الآخر التعبير عن مطالب الروح ذات الأجواء النقية الصافية المنسجمة مع جو الإيمان والتقوى (الخير الجنات الرضوان التقوى) وكلها كلمات وضاءة هادئة مشرقة ممتدة الأثر(٢). فالآيتان مرتبطتان بالمقصد العام للسورة، وهو أمر التوحيد ولزوم الإقرار به، والعمل من خلاله،

(١) ينظر: رسائل الرافعي، ص ٢٣٣. ٢٣٥.

(٢) ينظر: السعادة والشقاء من دار الفناء إلى دار البقاء جمع سمو الأمير سعود بن محمد بن عبد الله بن جلوي آل سعود، الرياض دار القبس للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١٤ ص ١٠٤.١٥.

ودل اسم التفضيل "بخير من ذلكم" على الجزاء الأوفى لمن آثر المفضل على المفضل عليه، وهو أن من قوى على شهوات النفس، ومجاهدة سلطانها، وغمره التقوى والاعتراف بوحدانية الله فقد ربحت تجارته.

وفي الآية الثانية دعوة صريحة للانتقال السريع من العالم المادي الذي لا يحمل سعادة حقيقية إلى العالم الروحي حيث الطهر والنقاء والصفاء والنور والثبات على الحق، وهذا لا يتحقق إلى بتقوى الله في السر والعلن وفي هذا ضمان لدخول الجنة وتحقيق السعادة المرجوة برضا الله تعالى، وفي هذا فليعمل العاملون، وليتنافس المتنافسون.

ويلحظ تنوع المفردات صانعا وحدة في الصورة العامة، وقامت كل مفردة بتلوين مساحة من المشهد في الآتين، وبهذا تنوع الأشكال والأحاسيس والقناعات، كما تحاورت الأفكار وتمازجت الدلالات وصبت جميعها في وحدة متناسقة بديعة، وكونت النساء والبنين وحدة المساحة، وكذلك الذهب والفضة، والأنعام والحرث، والخيل، وقد أكد المشهد أن كل هذه المفردات ـ النعم ـ زائلة وفانية، ولا يبقى إلا الجزاء على شكر النعمة والعمل بحقها[١]، ولهذا جاء التفضيل في الآية الثانية "لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا"، وهو حظ السعداء فقط. ويلحظ الربط بين تقوى الله وحصول الجزاء الأوفى في مواضع كثيرة بالقرآن الكريم[٢].

عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ

(١) ينظر: من جماليات التصوير في القرآن ، محمد قطب عبد العال، سلسلة دعوة الحق السنة الثالثة عشرة ربيع الأول ١٤١٥هـ، العدد ١٤٧، ص ٤٥.

(٢) ينظر: نفوس ودروس في إطار التصوير القرآني، توفيق محمد سبع، ١/ ١٩٧. ٢٠٠.

أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾[الحاقة:١٩. ٢٤] تتسم مفردات السعادة بالدعة والمسرة، والفرح والسرور والراحة والسلاسة حيث تكونت من حروف انسيابية، وأحدثت ايقاعا مريحا للأذن، صحبها النغم الشجي الذي يساعد على إبراز نبرة الفرح ورنته، "كتابيه، حسابيه، راضية، عالية، دانية" ونلحظ هيئة الحركة المؤثرة، والنداء الناعم الشجي لمن حوله ليشاركوه فرحته، وما فيه من نعيم حسي، بعد الرضا القلبي، وعبر عن ذلك بتوجيه الخطاب للجمع "اقرؤوا". ويأتي وعد الله لأهل الجنة: كلوا واشربوا بدل ما أمسكتم عن الأكل والشرب لوجه الله، فكونوا اليوم في نعيمكم، وكلوا وأشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية(١). ويلحظ اقتران حركة أخذ الكتاب باليمين، والقول المعبر عن الفرحة، وقد ربط بين المقدمة والنتيجة في صورة بلاغية مؤثرة ومحفزة لفعل الخير.

الفرح والسرور:

عبر القرآن الكريم عن السعادة بألفاظ مترادفة في القرآن، وجعلها مربوطة بالإيمان بالله الواحد، وآثاره في الآخرة كالفرح والبشرى **قَالَ تَعَالَىٰ:**﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ

(١) ينظر : الكشاف للزمخشري، ٤/ ٦٠٣.

أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾ [آل عمران:١٦٩-١٧١]. قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾﴾ [الانشقاق: ٧-١٣]. هذا إخبار عن حال الشهداء والمؤمنين في الجنة، فهم في الجنة يشعرون بالسعادة والفرح، مما رأوا من النعيم والجزاء، وأن رحمته من موجبات الفرح والسعادة، وأنها خير من كل أمور الدنيا. والحياة الطيبة جزاء ما قدمه في الدنيا من أعمال صالحة، ونلحظ التقابل في آيات الانشقاق، فضلا عن الصورة الحركية المعبرة لمن أخذ كتابة بيمينه، بخلاف من يحاول إخفاء كتابه خلف ظهره، بعدما كان مسرورا في الدنيا، انقلب الحال إلى ضده.

شرح الصدر:

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴿١٢٥﴾﴾[الأنعام:١٢٥]. فأهل الهدى والإيمان لهم شرح الصدر واتساعه وانفساحه، وأهل الضلال لهم ضيق الصدر والحر والظلمة، فلا سعادة للقلب، ولا لذة ولا نعيم ولا صلاح إلا بالتوجه بالعبادة له وحده، وأن تكون غاية مطلوب المؤمن وأحب إليه من كل ما سواه(١). وجاء المعنى من خلال البناء الشرطي والربط بين المكونين من خلال المقدمة والنتيجة، مع تتابع واقتران أهل السعادة بأهل الشقاء، لتوضيح المعنى وتأكيده.

(١) ينظر: طب القلوب عند الإمامين الجليلين ابن تيمية الحراني، وابن قيم الجوزية، إعداد أحمد الراوي، ص ٣١١. ٣١٣.

لقد كشفت الآية من خلال التقابل على دلالة سعادة المؤمن، واستنار بنور الحق، فاطمأنت نفسه، وتلذذ بالطاعة، وفي المقابل من ضل الطريق وجد علامة ذلك في ضيق صدره. ويلحظ العلامة الحسية بين الفريقين من خلال لفظ (الصدر) فمرة يكون منشرحا، كناية عن تهيئة النفس لقبول الحق حتى تحصل على السعادة بالإيمان، ومرة يوصف بصفات متتابعة وأحوال مفصلة، وهي تدل على المبالغة في معاناة الشقي، ويلحظ الإيجاز في حال السعيد، والتفصيل والتتابع في حال الشقي، مما يتناسب مع سهولة طريق الإيمان، وصعوبة ومعاناة طريق الكفر، فضلا عن جزائهما.

أخذ الكتاب باليمين، وأصحاب اليمين

من أمارات تحصيل السعادة، والفوز بها، أخذ المؤمن كتابه بيمينه، وفي الجانب الآخر أخذ الكافر وأهل الشقاء الكتاب بالشمال فهذا دليل التعاسة والشقاء، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ۝٨ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ۝٩ ﴾[الواقعة: ٨-٩] "أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ" هم الذين يؤتون صحائفهم بأيمانهم، "وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ" هم من يؤتونها بشمائلهم. أو أصحاب المنزلة السنية وأصحاب المنزلة الدنية، من قولك: وفلان مني باليمين، فلان مني بالشمال: إذا وصفتهما بالرفعة عندك والضعة؛ وذلك لتيمنهم بالميامن وتشاؤمهم بالشمائل، ولتفاؤلهم بالسانح وتطيّرهم من البارح، ولذلك اشتقوا لليمين الاسم من اليمن، وسموا الشمائل الشؤمى. وقيل: أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة: أصحاب اليمن والشؤم؛ لأنّ السعداء ميامين على أنفسهم بطاعتهم، والأشقياء مشائيم عليها بمعصيتهم[1]. ولما كان

(١) الكشاف، ٤/ ٤٥٦، ٤٥٧.

مقصد السورة الأعظم بيان الفروق بين أهل السعادة، وأهل الشقاء يوم الحساب والجزاء فصل في الجزاء الحسي والمعنوي، ونلحظ المجاورة والتوازن اللفظين بين الألفاظ المتقابلة.

الوجوه الناضرة، والوجوه البيضاء

عبر القرآن عن التكريم العظيم لأهل الإيمان، حيث النظر إلى الذات العلية، ودل التقديم على الحصر، وتلحظ بلاغة القرآن الصوتية في تنويع صوت الضاد والظاء في وصف أحوال السعداء في الاخرة، **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾[القيامة: ٢٢-٢٣] كناية عن النعمة والحسن، والبهجة والتنوع يؤنس الوجدان، ويحرّك الأركان، ويجذب الأسماع، ويُحدث في نفسه ميلًا إلى الإصغاء والتلذُّذ بنغمته العذبة، ويجعل العبارة على الأذن سهلة مستساغة، فتجد من النفس القبول، وتتأثر به أي تأثير، وتقع في القلب أحسن موقع(١). وتبدو بلاغة التجاوب الموسيقي النابع من تماثل الكلمات تماثلًا كاملًا أو ناقصًا، حيث تطرب له الأذن، وتهتزّ له أوتار القلوب، فتتجاوب في تعاطف مع أصداء أبنيتها، فالجناس كان سببا في خلق الموسيقى الداخلية، وإيجاد وشائج التنغيم بين ألفاظه(٢). فضلا عن التشويق والتشوف من السامع رغبة منه الوقوف على اللفظ الثاني وما يحمله من معان منسجمة مع اللفظ الأول، فإذا ما ظفر به كساه أُنسا وراحة، **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١٠٧﴾[آل عمران: ١٠٧] عبر بـ (رحمة الله)، بدلا من: (الجنة)؛ للدلالة على أن المؤمن يدخل الجنة برحمة ربه لا بعمله وطاعته على سبيل المجاز المرسل بعلاقة الحالية؛ إذ

(١) علم البديع دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع، بسيوني فيود، ص ٢٤٨.
(٢) ينظر: السابق نفس الصفحة.

الرحمة يحل الإنسان في مكانها، وهو الجنة، وفي دلالة على التلاحم بين الجنة وساكنيها.

لهم دار السلام

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [الأنعام: ١٢٧] قَالَ تَعَالَىٰ:﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [يونس: ٢٥]. هذا ما اختص به عباده المؤمنين الذين انشرحت صدرهم للإيمان، واختاروا طريق الحق، وسبيل الهداية والرشاد، تثمر الخير والحب للناس، حياتهم مليئة بالنضارة والأمل والحنو، والشعاع النوراني الذي يضفي على الآخرين الألفة والمحبة، فجزاهم الله بأوفى الجزاء وأجله حيث السعادة والهناءة والنعيم الكامل للقلب والروح والبدن، وفي تقديم الخبر على المبتدأ دلالة على القصر والحصر، وقولهم سبحانه" وَهُوَ وَلِيُّهُم" على عناية الله بهذه الفئة المؤمنة فيسر لهم طرق الوصول إلى محبته ورضوانه.

المطلب الثاني: جمال النظم في آيات السعادة:

التصوير أحد طرق نقل المعنى بطريق غير مباشر، ويعبر عن الدلالات بمشاهد تتسم بالحياة والحركة والظلال تخاطب الحس والوجدان وتنقل المعنى من المجرد إلى المحسوس فتنفذ للعقل والحس والإدراك، وتمكث في القلب،

يصور القرآن السعادة القلبية التي يضفيها المنفق المؤمن على المحتاج، ويحظى هو بالجزاء الأوفى، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾[البقرة: ٢٦١] المشهد يعبر عن الجمال الحسي، والحياة النامية

حيث الطبيعة الحية، والثمار الطيبة المتضاعفة، وهي تجسد المعاني الإنسانية الراقية الناتجة عن الغلبة على صفة البخل، وأخذ النفس إلى معاني الجود، وفي هذا دلالة قوة الإيمان، ودليل الخير والمحبة للآخرين، فالمؤمن يُعطي طواعية لشوقه إلى ما هو أجمل وأخلد، ويعمل من أجل رضا الله تعالى، فصور القرآن الرضا النفسي، والسعادة الغامرة، والإحساس بالجمال، الذي يمتلئ به قلب المنفق، ويتجلى في صورة الجنة بألوانها وأشجارها وثمارها، والصورة تماثل جمال التناسق والتناسب بين حياة النفس في آمالها وتطلعاتها وحركتها التي تنشأ بها واقعها وبين نبات الأرض وهو ينمو وضاء بجمال ثماره(١).

ويمدح القرآن من يقدمون العطاء والنفقة للمحتاجين، ويذهبون عنهم العوز، فتدركهم السعادة بعد الحزن، وهو طريق لتهذيب النفوس، وجاء التعبير القرآني عن هذه المعاني بالمثل، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٢٦١﴾[البقرة: ٢٦١] الآية دعوة وحث على الإنفاق، والوعد بالجزاء الأوفى، فمن قدم على إسعاد الناس، كسته السعادة من رب العالمين أضعاف ما قدم بلا حد، وجاءت مفردات الصورة في انسجام تام، وانتزعت من البيئة الماثلة، فتثبت المعاني، وترسخ في الذهن، وبناء النتائج على المقدمات بلا مهل.

وفي بيان إنماء السعادة التي تدخل إلى قلب المُعْطَى من أثر الصدقة وما تحدثه من التحول الإيجابي، وثوبها الذي يرجوه المعطِي بعد إنفاقه المصحوب بالإخلاص، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ

(١) ينظر: الإحساس بالجمال في ضوء القرآن الكريم ، محمد عبد الواحد حجازي، ص١١١.

أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ [البقرة:٢٦٥] الآية تصوير للمعاني النفسية التي يمتلئ بها قلب المؤمن بالله، لما يبذله من مال طواعية وإخلاصا وشوقا إلى ما هو أخلد وأجمل، وأدوم للسعادة لنفسه، حيث يحظى برضا الله تعالى، وهذا الركن الذي يسعي للجوء إليه، والعيش في كنفه ،والرضا النفسي الذي يغمر إحساسه بالجمال حين يشهد صورة المشبه به فيرى جنة من جنان الأرض فوق ربوة تنثر خيرها ويفيض عطاؤها، فإذا نزل عليها المطر الغزير جادت بخيرها ضعفين، فكسيت بالجمال والخصوبة والحياة، والمقصود هو صورة المشبه (الإنفاق)، ابتغاء مرضات الله، فيضاعف الله أجره، ويكثر ثوابه، وهذا دليل عملي على نمو ثواب الصدقة خاصة التي كسيت بالإخلاص في النية، والرغبة في مساعدة الآخرين المحتاجين بقدر ما يملك، دون النظر إلى القدر المبذول، وهذا تجسيد للسعادة التي تغمر قلب المؤمن حين ينفق ماله في سبيل الله[1]، والتمثيل الحسي لجزاء الصدقة ونموها فيه دعوة وترغيب للإنفاق لما له من أثر طيب على المنفِق والمنفَق عليه، وفي هذا تقريب المعنى وتجسيده، وبيان وجه من وجوه الإعجاز القرآني الذي لا تخلو آية منه.

والسعادة تكمن في تقوى الله ورضوانه وما أعده الله للمتقين من ثواب عظيم ونعيم مقيم، تتضاءل أمامه كل المطالب المادية وإذا ظفر الإنسان بها أضاءت له الآفاق في وجهه وأشرقت الآمال في نفسه، وانعكست أضواء الهداية على جوارحه، وانفجر

(١) ينظر: الإحساس بالجمال في ضوء القرآن الكريم ، محمد عبد الواحد حجازي، ص١١٢.

نبع الإيمان من قلبه فغمر الكائنات بحنانه وحبه[١].

ومن عطاء الله تعالى لعباده المؤمنين أن دلهم على الأعمال التي بها يدخلون الجنة وينعمون فيها، ويتلذذون بالسعادة في الدنيا والآخرة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران: ١٣٤] هناك خصال عدة مرتبطة بدخول الجنة، ومنها الإنفاق في السر والعلن، والقدرة على كتم الغضب، وكظم الغيظ، والعفو عند المقدرة لمن ظلمك، والعودة إليه، وتنفيذ مواد دستور القرآن الكريم على مستوى الفرد والمجتمع.

ودل الطباق (السراء، والضراء) على أن قلب المؤمن عامر بالمحبة، والرغبة في العطاء حتى أصبح سلوكا لا ينفك عنه، ويحرص دائما على تنميته في تجرد وإخلاص وصفاء نفس، ودليل على الإحساس بالمسؤولية المجتمعية حيث يساعد في حل مشكلة الفقر بما يستطيع، ويعمل على إسعاد الآخرين.

وتتجلى السعادة في عدم جرح مشاعر الآخرين والترفع عن الآفات السيئة، والأفعال المؤذية نفسيا من خلال السخرية والاحتقار عموما، والاستهانة بالأقدار وهذا دليل العنف الاجتماعي وضياع الحقوق، والسخرية تصنع جرحا عميقا، وألما غائرا يصعب علاجه، ويجب التخلق بحميد الصفات، وجميل الأفعال، ويلاحظ التعبير بألفاظ الجمع؛ لشدة وقعه، وأثره على تفكيك أواصر المجتمع، وأرشدت الآية إلى الواجب العام، وهو كف الأذى بكل صوره وألوانه وأشكاله، حضورا، أو غيابا، فالتحريم فيهما معا، فلا نتجسس

(١) ينظر: نفوس ودروس، توفيق محمد سبع، ١/ ١٩٠. وينظر: طب القلوب عند الإمامين الجليلين ابن تيمية الحراني، وابن قيم الجوزية، إعداد أحمد الراوي، ص٢٢٨. ٢٢٩.

عليهم، أو نتتبع عوراتهم، أو ننبذهم بالألقاب؛ احتقارا لهم، أو تقليلا من قدرتهم، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ١٢﴾ [الحجرات١١. ١٢] الحفاظ على مشاعر الآخرين، والعمل على بقاء المودة والإخاء، دليل السلوك القويم، ومنهج رباني، ودعوة لنشر السلام والثقة والطمأنينة والألفة والفعالية الإيجابية، وتنمية عرى التلاحم بين أفراد المجتمع المكون من الذكور والإناث، والترفع عن التنقص والاستهزاء والازدراء. هذا نهي متتابع مختلف الصور والأشكال، وأثر فعله سيء على نفس الآخر ومشاعره، وبين القرآن أن من ظن أنه يلمز الآخر، فالحق أن من يسخر من الآخر أو يلمزه فإنما هو يسخر من نفسه، ويلزمها؛ لأن من يسخر منه أو يلمزه إنما هو أخوه، وأثره راجع إليه، فلا بد من الترفع عن هذه الصفات الذميمة؛ وفي هذا إيقاظ لشعور الإيمان في نفس من يفكر في السخرية واللمز بالآخر، وأن عليه أن يغير من سلوكه المردود؛ لكونه يجلب التعاسة والشقاوة للطرف الآخر، وهذا خروج عن الحق والخلق القويم الذي يجب أن يكون عليه المجتمع المسلم حتى يثمر التعاون والمودة والتآلف والمحبة، وينشر الرضى والبشاشة والطمأنينة والتكاتف والإخاء، ويلحظ الترابط بين الفعل وجزائه، فمن أصرَّ على هذه الصفات الذميمة، ولم يتب منها، فهو

مجاف للفطرة السليمة[١]، وفاقد لأساليب السعادة والتحاب والألفة، والاعتصام بحبل الله التي يجب أن يعمل لها دائما الفرد والمجتمع.

يثير القرآن النفوس، ويطلب منها المراجعة والمحاسبة، والتعقل في الفعل وأثره، فربما من سخرت منه هو في الحقيقة أرفع منك قدرا وأعلى منزلة، فهذا مجال المحاسبة "عسى أن يكونوا خيرا منهم"، وانطلقت الآية من قاعدة الإيمان الكامل الذي يجب أن يكون واقعا مثاليا، أو دليل اكتمال الإيمان، وعقب النواهي بأسلوب النفي "ومن لم يتب" والنفي قريب من النهي الذي بدأت به الآية، وبدأت الآية الثانية بالأمر "اجتنبوا" ختمت أيضا بالأمر "واتقوا الله"، لما فيه من ضرورة التخلص والترفع من خلال التقوى إرشادا وتوجيها ونصحا، وكظما للغيظ.

وسورة الحجرات مدنية وهي تتحدث عن رسوخ الإيمان والثبات على الحق والاهتداء بنور القرآن وتطبيق شعائره وأركانه، ولا يرتاب منصف في أن تنزه المجتمع المؤمن عن هذه الخصال الذميمة، مدعاة للصفاء النفسي، والتماسك والتآزر، والإفادة من الطاقات الفاعلة في إطار من التعاون المثمر بين أفراد المجتمع على اختلاف الطاقات والقدرات، وتآزرهم على كل ما فيه سلامة هذا المجتمع وتنمية فاعليته لتحقيق رسالة الإسلام الخالدة، وتسامي القدرة الذاتية عند جماعة المسلمين، والسير به نحو بنية حضارية يكتنفها الصفاء والنقاء والشمول[٢]. ويلحظ ترتيب الجزاء على الشرط، وهذا من الصلات بين المعاني، وبيان الفعل وأثره، وضرورة العمل على الإيجابية والتحول نحو الأفضل للفرد والمجتمع، وهذا من إعجاز القرآن وبلاغته، حيث يربي الإنسان المؤمن،

(١) ينظر : الإنسان والحياة، في وقفات مع آيات، محمد أديب الصالح، ص١٨٩. ١٩٣.
(٢) ينظر: تفسير الرازي والتحرير والتنوير ١١/١١٤. ١١٥.

ويزج به نحو الكمال من التآخي واحترام مشاعر الآخرين، والعمل على تنقية النفس من الأدران، وينمي صفة التضامن والتعاون والإخاء. ولا شك أن تصوير المعاني في صورة حسية يكون أشد رسوخا في النفس، وأكثر إثارة للانفعال والمشاعر، ومما صوره القرآن في جانب الأمور الذي ينهى عنها السخرية بالآخر، والانتقاص من قدره أفرادا أو جماعات. والنفوس تسكن وتأنس إذا خرج لها المعنى من غامض إلى واضح ومن خفي إلى جلي، كما أن التمثيل بالأمور المشاهدة أوقع ولمادة الشبه أقطع(١).

فلا داعي للانتقاص والطعن في الآخرين، كما نهى عن الغيبة والنميمة وصورها بصورة بشعة بشاعة أثرها على المغتاب في حقه، فهي صوة مشمئزة ومثيرة للنفس حيث تمجها فشبهت المغتاب بأكل جيفة آدمي، وقد ذكر العلوي عدة نِكات تدل حسن المطابقة لمقصد الآية الذي سيقت من أجله، ومنها: أنه ألحق بالاستفهام الإنكاري التوبيخي لفظ "أيحب" للدلالة على وقعها في النفوس، وتطلع الخواطر، وهذا المعنى لا يتوفر بلفظ الإرادة، ويلحظ التناسب بين صورتي التشبيه، فالغيبة تكون بذكر معايب الناس، وبيان مثالبهم، وتمزيق أعراضهم، وتمزيق العرض مماثل لأكل الإنسان لحم من يغتابه، فأكل اللحم تقطيع له، وتمزيق لأوصاله، وفي كلا الطرفين شوق وولع، واختار لفظ "لحم أخيه"؛ لأن وقع التحريم به أوقع، والغيبة فيه أعظم، ولهذا عبر عن المعنى بطريق المبالغة المعبرة عن المقصود، والتعبير بقوله "ميتا" لوجود الغياب في المغتاب فهو بمنزلة الميت، فلا يستطيع الدفاع عن نفسه لعدم شعوره بما يجري في غيابه، فضلا عن

(١) ينظر: أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه مجمود محمد شاكر، دار المدني بجدة،ط١ ١٩٩١م، ص١٢٦، وكتاب الطراز المضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ليحي بن حمز العلوي ، مكتبة المعارف الرياض، ١/ ٤٣٣.

أن لحم الميت مستكره وتنفر منه النفس، وجاءت النتيجة الطبيعية لتلك الصورة البشعة حيث إنها في غاية الكراهة والنفور(١).

ويلحظ بديع النظم في ختام المثل بالفاء الفصيحة التي تكشف عن معان جمة، ومنها أن من فعل هذا الأمر كرهتموه، وأن الواجب على جماعة المسلمين بحسب ما يقتضيه العقل، نصحه وتوجيهه حتى يترفع عن هذا الفعل وعن الأقوال البذيئة، ويلحظ أن الجرم في الآية الأولى أفظع؛ لأن السخرية واللمز والنبز يكون في العلن فالتجريح فيه أعلى، وأثره على جلب الشقاوة أشد، أما الاغتياب والتجسس فيكون في الغياب والسر وعدم العلم غالبا، فناسب كل تذييل بدايته(٢).

والقصد من هذا التصوير تنفير الناس من هذا الخلق الذميم والخصلة المزرية، وتحقيق الخير للناس جميعا، ووجود مجتمع ينعم بالحياة، ويحافظ على المشاعر، ويرعى السلوك القويم، وينمي العلاقة بين أفراد المجتمع، والترفع عما يقوضها سرا أو جهرا، والعمل على ما يسعد الفرد والمجتمع في الدارين.

والآيتان دعوة لتقرير مبدأ التعايش والحياة الاجتماعية المستقرة نفسيا، والترفع عن الظن لما يسببه من ضيق لنفس من أسيء الظن به، وهذا بلا شك يقوض دعائم المجتمع، ويفكك عرى التلاحم بين أركانه، كما تدعو إلى الترفع عن الأخلاق الذميمة كالغيبة والنميمة، فهذا يفرق بين المتحابين، ولذا صور حال من يقوم بهذه الأفعال بصورة بشعة تعافها النفس، فهل تحب سماعها فضلا عن رؤيتها واقعيا، فكيف بمن يغمس لسانه فيها. وهي دعوة لاجتناب هذه الصفات الذميمة، والتحلي بالأخلاق الحميدة حتى

(١) ينظر: الطراز للعلوي١/٤٠٠. ٤٠٣.

(٢) ينظر: من كنوز البلاغة القرآنية في سورتي الحجرات وق د. عبد الجواد طبق، ص٨٢.

تنشر السعادة، وتنقشع التعاسة، ويعيش المجتمع في طهر وعفاف وصفاء ونقاء وألفة ومودة وراحة بال.

وهذه توجيهات أخلاقية ونسمات تربوية لإيجاد علاقات طيبة مع الآخرين، حيث تكشف عن تقديرهم أثناء الحديث معهم، وذم التعالي عليهم، فهذا له أثره الجميل في نشر السعادة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾[لقمان: ١٨. ١٩] يبين القرآن المنهج القويم في التواصل الإيجابي مع الآخرين، الاحترام والتقدير المتبادل، وبيان أن هذا يتطلب التواضع، ومراعاة إحساس الناس ومشاعرهم، ويتجلى ذلك من خلال الهيئة التي يكون عليها المرء، ويلمح معناها الضمني أو الكنائي، فالمظهر مرتبط بالكبرياء والغرور، ولا يصدر ذلك عادة إلا ممن كانت له منزلة في المجتمع، والقرآن يحذره من أن يقع في هذا المسلك القبيح، والفعل النشاز، ويسيطر عليه الخيلاء والإعجاب بالنفس والغرور، وهنا يأتي التحذير من النتيجة السلبية التي تكون سببا في تعاسة الآخر، حيث يقارن نفسه بمن يقوم بهذا الصنيع السيئ، وأن القصد أن يكون الرجل ذا المكانة في قومه مثالا للتواضع، وقدوة في لين الجانب، فلا يكون نابيا، أو ساخرا من الآخرين، أو مبالغا في الثقة بنفسه، ومتكلفا في الظهور، والمظهر السلبي له وجهان: أحدهما أنه نقيصة في الخلق السوي لصاحبه، والآخر أن صاحبه يستخدمه في إيذاء كرامة الناس ومشاعرهم، والتأثير النفسي عليه في محاولة إخضاعهم وجرهم بعيدا عن الدين، بما يلقي في نفوسهم من مشاعر الإعجاب أو الإرهاب، وتنتشر العدوى بين الناس، ويصدِّرون الطاقات السلبية والتعاسة

لهم وللآخرين، وهذا مجاف للفطرة[١].

وقد تتابعت النواهي "ولا تصعر، ولا تمش" وكلاهما مرتبط بالآخر، وهو دليل التكبر والتعالي على الناس والزهو والأنانية وحب الذات، والمشي في تخايل وقلة احترام الآخر، واحتقاره، والتقليل من قدره، كما تتابعت الأوامر "واقصد في مشيك، واغضض من صوتك" أملا في المراجعة، وتجيب مظاهر الانتقاص، بل دفنها من الأساس، لما لها من أثر سيء حيث تنتشر بسببها التعاسة والانتقاص والتجريح، فنهاه عن المصاعرة، والمشي في الأرض مرحا، وأمره بالقصد في المشي وغض الصوت[٢]، وفي الأوامر دعوة للتوسط لا المنع، وأتبع ذلك بالتعليل.

المطلب الثالث: التصوير البديعي في آيات السعادة:

١. الإجمال والبيان:

وعد الله تعالى عباده المؤمنين (أهل السعادة) بجنة عرضها السموات والأرض، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ ﴾[آل عمران" ١٣٣. ١٣٤] حديث القرآن عن صفات أهل الجنة تنوعت بين الإجمال والتفصيل في كثير من الآيات، وكلها تبعث على الطمأنينة والراحة والرضا، وتؤكد على أن أهل الجنة

(١) ينظر: التصوير الساخر في القرآن الكريم د. عبد الحليم حفني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢، ١٧٠– ١٧٤.

(٢) ينظر: الطراز للعلوي، ٣٧٩/٢.

يعيشون في نعيم وترف، كما عدد مجالسها، ونوَّع في الحديث عن النعم فكان منها الحسية والمعنوية والروحية وهذا بما يتناسب مع طبيعة الإنسان واحتياجاته المختلفة، هذا الجزاء العظيم، والمآلات السعيدة لجنة عرضها السموات. والقرآن ينظم شؤون الحياة الدنيا، وأن يأخذ المؤمن منها بطرف، ولا يزهد فيها كلية، بل يظفر بدنيا حسنة فيها متعة وفيها سعادة، ويعمل للآخرة ليظفر بآخرة سعيدة فيها كذلك متعة حسية وروحية. ورسم له المنهج القويم ليحظى بالسعادتين(١)، كما عدد صفات المتقين وفصل بعد الإجمال فهم الذين ينفقون في السراء والضراء، في المنشط والمكره، في الإيسار والإعسار، ويعتقدون بأن الصدقة تنمو بإخراج حق الفقير دون أن تنقص بل تحل فيها البركة، يخرجونها طواعية بلا طلب لسمعة أو مدح، ومن صفات المتقين أنهم يكظمون الغيظ عند الغضب وعند اشتداد الأزمات، ثم يترقى القرآن في مدح صفات المتقين فهم يعفون ولا يقتصون لأنفسهم، بل يحسنون لمن أساء إليهم، ويصلون من قطعهم، ويدل تذييل الآية "والله يحب المحسنين" على فضل الله على عباده المتقين فيكسوهم بمحبته لهم(٢).

ويلحظ الترتيب البديع في تقديم النتائج والتفصيل فيها، ثم يعقب بالمقدمات، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٥٨﴾ [يونس ٥٧. ٥٨] تجلت أوصاف القرآن وأهدافه فيما ينفع الناس جميعا، وهو أساس شفائهم من كل داء يصيب الأنفس والصدور، وهو جامع للخير كله، وهاد لطريق الحق المبين، صادق فيما جاء به من عند الله، وهذا الخطاب

(١) ينظر: من بلاغة القرآن أحمد أحمد بدوي ، دار نهضة مصر ب. ت ، ص٣٣٧.

(٢) ينظر: غذاء الروح، الشيخ عبد العزيز المسند، السعودية، دار العمير ، ط٣، ١٤٠٧م ص٢٦١.

عام لجميع الناس، ويجوز أن يكون خاصا بالمشركين، وبهذا يكون ذكر الثناء على القرآن بأنه هدى ورحمة للمؤمنين، وتسجيلا على المشركين بأنهم حرموا أنفسهم الانتفاع بموعظة القرآن وشفائه لما في الصدور، فانتفع المؤمنون بذلك(١).

وقد كشفت الفاء في "فليفرحوا" عن الشرط المقدر على معنى: فإن فرحوا بشيء فليفرحوا بما ذكره من الأوصاف السابقة، وبمن وفق في اغتنام القرآن بتلاوته، والعمل بآياته، وأقبل عليه بإخلاص، فأدرك الفرح والسعادة في حياته، وكان جزاؤه الأوفى في الآخرة من نعيم الجنة، والنجاة من النار. وهذا توجيه للمؤمنين بالأولى أن يفرحوا به، وهو الهدى ودين الحق، بدلا من الفرح بحطام الدنيا الزائل، وزهرتها الفانية.

يقول الزمخشري: "والتكرير للتأكيد والتقرير وإيجاب اختصاص الفضل والرحمة بالفرح دون ما عداهما من فوائد الدنيا، فحذف أحد الفعلين لدلالة المذكور عليه، والفاء داخلة لمعنى الشرط؛ كأنه قيل: إن فرحوا بشيء فليخصوهما بالفرح، فإنه لا مفروح به أحق منهما"(٢).

فالسعادة التي تحققت للمؤمنين بعد نزول القرآن تفوق ما في الدنيا بزخارفها وهي ما حرص عليها المشركون فلم يجنوا إلا الشقاوة. والآية دليل على أن المؤمنين جنوا فضلي الدنيا والآخرة، والأول تحقق بكمال النفس وصحة الاعتقاد وتطلع النفس إلى الكمالات، وإقبالها على الأعمال الصالحة مما يكسب النفس الراحة في الدنيا، والعيشة الهنيئة، والاطمئنان، وأما الآخر فله ما وعد سبحانه(٣)، إن الله لا يخلف الميعاد.

(١) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور، ١١/ ١٠٩.
(٢) الكشاف للزمخشري ٢/ ٣٥٣.
(٣) ينظر: التحرير والتنوير ١١/١١٤.

فالإيمان إذا باشر القلب وخالطته بشاشته استشعر الحلاوة واللذة والسرور والبهجة، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥۚ قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ ٣٦﴾ [الرعد من الآية ٣٦]، وأهل الإيمان يستبشرون بما أنزل من القرآن، فيفرحون ويسرون لما يجدونه من حلاوة ولذة وبهجة، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤﴾[التوبة: ١٢٤].

وتلحظ القيمة البلاغية للإجمال والتفصيل في ترسيخ المعنى وتأكيده في ذهن المتلقي مرتين، الأولى من خلال الانطلاق من الفكرة الكلية، والأخرى من خلال التفصيل في أجزائها.

٢. بلاغة التناسب بين سور القرآن التي تتحدث عن السعادة

السعادة نعمة من الله يهبها لعباده الذين أخلصوا في عبادته وذكره، واتبعوا منهجه قولا وعملا، والشقاء عكس ذلك، وقد ورد لفظ السعادة والشقاء بهذا المعنى في عدة آيات قَالَ تَعَالَىٰ:﴿يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ ١٠٥ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ ١٠٦ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ١٠٧ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ١٠٨﴾ هود: ١٠٥- ١٠٨] الحديث عن الهول يوم القيامة والنجاة منه لمن

أُذن له، بمقتضى وعد الله سبحانه، وجاء الجمع في عدم التكلم "لَا تُكَلَّمُ نَفْسٌ" إذ النكرة في سياق النفي تفيد العموم، ثم تلاها التفريق، فبعضها شقي، وبعضها سعيد، "فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ" وتلاه التقسيم "فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا" فأضاف العذاب إلى الأشقياء، والسعادة إلى الأتقياء، فأهل السعادة لا خروج لهم من الجنة، ويلمح الترقي في السعادة باستخدام الاستثناء "إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ" حيث رضوان الله ولقاؤه، وهذا أكبر وأجل من نعيم الجنة(١) وفي الآيات مدح للأتقياء، وذم للأشقياء كما في قوله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦﴾ [التكاثر: ١-٦] ويدخل فيه التكاثر بالعدد والمال والجاه والأقرباء والأنصار، وكل ما يكون من الدنيا ولذاتها وشهواتها.

وجاء قوله سبحانه: "حتى زُرْتُمُ المقابر" على سبيل التمثيل والتهكم بمن شُغل عن أمر الآخرة بالدنيا، أو ألهاكم التكاثر بالأموال والأولاد إلى أن متم وقبرتم وأفنيتم أعماركم في طلب الدنيا والاستباق إليها، والتهالك عليها حتى أتاكم الموت ولم تعملوا لعاقبتكم وآخرتكم، وحذف الملهى عنه للتعظيم المأخوذ من الإبهام بالحذف والمبالغة في الذم(٢). وقوله سبحانه: "كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ. ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ" موصول بما قبله وبما بعده،

(١) ينظر: مراقي المجد لآيات السعد، لأبي العباس أحمد بن علي المنجور، ١/ ٥٥٢، وتحرير التحبير لابن أبي الإصبع المصري، ص ٣٦.

(٢) ينظر: الكشاف للزمخشري ٤/ ٧٩١، والتفسير الكبير للرازي، ١٧/ ٢٠٨ وتفسير روح المعاني للألوسي ١١٢/٢٣، والفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية، لسليمان بن عمر العجيلي الشافعي الشهير بالجمل ٤/ ٥٨٠.

والأول جاء للرد والتكذيب أي: ليس الأمر كما يتوهمه هؤلاء من أن السعادة الحقيقية بكثرة العدد والأولاد، والآخر على معنى القسم أي: حقاً "سوف تعلمون" ودل المقام على المفعول، وهو العموم والشمول.

والتكرير على معنى التهديد والإنذار، والردع والزجر، والوعيد، والتنبيه بضرورة التعجيل باليقظة والانتباه بالعمل لما أبقى(١).

ويلحظ ترابط المعاني وانسجامها بين سورة التكاثر والسورة القارعة قبلها وسورة العصر بعدها، فقد تحدثت سورة القارعة عن أهل السعادة والشقاء، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾[القارعة: ٦. ١١].

قال البقاعي: "لما أثبت في القارعة أمر الساعة، وقسم الناس فيها إلى شقي وسعيد، وختم بالشقي، افتتح هذه بعلة الشقاوة، ومبدأ الحشر لينزجر السامع عن هذا السبب ليكون من القسم الأول، فقال ما حاصله: انقسمتم فكان قسم منكم هالكاً لأنه "ألهكم" أي: أغفلكم إلا النادر منكم غفلة عظيمة عن الموت الذي هو وحده كاف في البعث على الزهد فكيف بما بعده(٢).

كما يلحظ أن الآيات السابقة تفصيل وبيان لقوله سبحانه قبلها: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤﴾ وبدا ذلك في لفظ (الناس) الشامل لأهل السعادة وأهل الشقاء، وفي هذا تهيئة للمعنى المفصل، وبيان جزاء كل منهما. وقوله سبحانه "ثُمَّ

(١) ينظر: الكشاف ٤/ ٧٩٢، وتفسير الألوسي ١١٤/٢٣.

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي/ ٩/ ٤٩٩.

لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النعيم" توكيد لمعنى السعادة الحقيقي الذي أغفل أصحاب التكاثر وألهاهم، فاختاروا الشقاء، أيْ ليسألوا عن النعيمِ الذي ألهاهم الالتذاذُ بهِ عنِ الدينِ وتكاليفِه، والخطاب مخصوصٌ بمنْ عكفَ همتَهُ عَلى استيفاءِ اللذاتِ، وَلَمْ يعشْ إلاَّ ليأكلَ الطيبَ، ويلبسَ اللينَ، ويقطعَ أوقاتَهُ باللهوِ والطَّرَبِ لاَ يعبأُ بالعلمِ وَالعملِ ولا يحملُ نفسَهُ مشاقهما، فأمَّا منْ تمتعَ بنعمةِ الله تعالَى وتقوَّى بَها عَلى طاعتِهِ وكانَ ناهضاً بالشكرِ فهُوَ السعيد حقا(١).

فالربط والتناسب بين السورتين واضح، وإن نفته د. عائشة عبد الرحمن؛ بحجة البعد بين السورتين في النزول، إلا أن يكون ملحوظا في ترتيب وضعها في المصحف، تشابه الجو الإنذاري المسيطر على السورتين كلتيهما، ثم أكدت نفي الربط بأن هذا ليس خاصا بالسورتين، بل تشاركهما فيه سور وآيات كثيرة، وبخاصة التي عرضت لمواقف الهول والبعث والحشر، وأنذرت بيقين الحساب والجزاء(٢).

لقد جاء الربط من طريق الحديث عن السعادة والشقاء، فسورة "التكاثر" امتداد وتفصيل للشقاء الوارد في سورة القارعة، أما السعادة فامتدادها جاء في سورة "العصر": ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣﴾[العصر:٣]، وفي هذا الربط المعنوي تأكيد للربط بين السور الثلاث، حيث الترغيب والترهيب وقد جاء من طريق اللف والنشر غير المرتب، وهذا اللون من التعبير

(١) ينظر: تفسير أبي السعود ٧/ ١٩٦.

(٢) ينظر: التفسير البياني للقرآن الكريم، د. عائشة عبد الرحمن، مكتبة الدراسات الأدبية ١/ ١٩٥.

دليل على الصلات القوية بين أجزاء الكلام، فإذا جاء المعنى مجملا بحثت النفس عن تفصيله، وجمع المعنى إلى نظيره، حتى صار وقعه أحلى، ومورده أعذب، ومأربه أنجح.

ولا تكتمل السعادة الحقيقية عند المؤمنين باقتصار الخير على ذواتهم، بل تمتد لتشمل توجيه الآخرين إلى الخير، ومساعدتهم في تنفيذه حسيا ومعنويا، وشد أزرهم بالصبر على الشدائد، وتفريج كربهم، وبناء مجتمع مترابط، يسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم، وهو ترجمة عملية للدين الذي هم عليه، فهم بإيمانهم وتصديقهم المقرون بالطمأنينة النفسية، والسكينة الروحية، والخضوع الكامل لربهم، وعملهم الصالح، اشتروا الباقي النفيس بالفاني الزائل الذي لا طائل منه، فصاروا أرباب السعادة، وأصحاب الرضا؛ لالتماسهم ما يؤدي إلى الفوز والنجاة من العقاب، وإرشاد غيرهم لطريق السعادة الحقيقي، وتواصيهم فيما بينهم بالحق والعلم، والصبر على حمل النفس على الطاعة(١). "فإن قيل الاستثناء لا يدل على أن المؤمنين الموصوفين في ربح مع أن الاستثناء إنما سبق لمدحهم بمضادة حالهم لحال من لم يتناوله الاستثناء؟ قلنا: الاستثناء وإن لم يدل بصريحه على أنهم في أعظم ربح ولكن اتصافهم بتلك الصفات الأربعة الشريفة يدل على أنهم في أعظم ربح، مع أنا لو قدرنا أنهم ليسوا في ربح فالمضادة حاصلة أيضا لأنهم ليسوا في خسر بمقتضى الاستثناء"(٢).

والتعبير على الإيجاز إذ المراد: من كان على الحق وأوصى به، فهو يرشد إلى الخير بعد أن نال منه الحظ الأكبر، والنصيب الأوفى، وتذوق طعوم الخير، ويدل فعل التواصي

(١) ينظر: تفسير الرازي/ ١٧/ ١٨٥. ١٨٩، وتفسير أبي السعود ٧/ ١٩٧.

(٢) مسائل الرازي وأجوبتها من غرائب آي التنزيل لمحمد بن أبي بكر عبد القادر، تحقيق إبراهيم عطوة عوض ٣٨٢. ٣٨٣.

"وتوصوا" على التشارك والتقبل والإثمار. وحمد الله الصبر والصابرين في كثير من الآيات، ووعد الصابرين بالجزاء الأوفى، والفوز العظيم.

وحدد القرآن الهدف من التواصي "الحق والصبر"، لما لهما من أثر إيجابي فاعل فهما مبعث الطمأنينة، وأساس السكينة، ومنبع الخير والفضيلة، وطوق النجاة من الرذيلة، وطريق الناجين، ومسلك الصالحين، وهما دليل الخيرية في أمة الإسلام، ودليل عملي على تطبيق منهج الله، و"التواصي بالحق والتواصي بالصبر هما ظاهرة التعاون الحقيقي، وبرهانه على عمل بناء يؤدي إلى رفعة شأن الأمة، وإبراز تميزها وذاتيتها، ويزيح من طريقها ما يعرض من معوقات ينسجها المكر والعداء الدفين للإسلام"(١).

فهذه الدعوة القرآنية لبناء مجتمع إسلامي يقوم على التكاتف والتآزر والتلاحم والتراحم والمودة والألفة، والعناية بالضعيف واليتيم والمسكين، وفك الأسير. لا شك أن النفوس العلوية ذات الهمم العالية يكون التكاثر عندها بما يدوم عليها نفعه، وتكمل به وتزكو حتى يتحقق لها الفلاح، وهي غاية سعادة العبد، فالتكاثر بأسباب السعادة الأخروية يعني ذكر الله تعالى، والاستعداد ليوم لقائه، وهذا هو مجال المنافسة والاستباق(٢).

وهذا حث على عمل "الصالحات" والمتمثلة في "اتباع الأوامر واجتناب النواهي في العبادات كالصلاة والعادات كالبيع فكانوا بهذا مسلمين بعد أن كانوا مؤمنين فاشتروا الآخرة بالدنيا فلم يلههم التكاثر، ففازوا بالحياة الأبدية والسعادة السرمدية فلم يلقهم

(١) ينظر: ألهاكم التكاثر، عبد الجليل نصار الجليل، مطبعة العبيكان، ص ٣٨.

(٢) الإنسان والحياة في وقفات مع آيات، د محمد أديب الصالح، معالم قرآنية في البناء، ص١١٥.

شيء من الخسر"[1].

٣. التقابل بين أهل السعادة وأهل الشقاء

من خصائص القرآن في الحديث عن السعادة إقرانه أهل السعادة بأهل الشقاء في مقام واحد، مصورا مكان كل منهما في الآخرة، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾[آل عمران: ١٠٦-١٠٧] البياض والسواد خاص بأحوال الناس في الآخرة، ولا ينسحب على غيرها إلا بحسب السياق، والبياض كناية عن الفرح والبهجة، والسواد عكسه حيث الحزن والغم. فوجوه المؤمنين تشرق بالنور، وتفيض بالفرح والسرور والبشاشة؛ لما تلاقيه من رحمة الله تعالى بهم، فأدخلهم الجنة، وتنعموا بما فيها، بخلاف الكافرين التي كست وجوههم الغمة، وخيم عليهم الحزن والألم، فاسودت بسبب العذاب الذي لاقوا ويلاته جزاء ما قدموا في الدنيا، وما كانوا عليه من الكفر والضلال، ولا يظلم ربك أحدا. وذكر القرآن أن البياض سمة أهل النعيم: تشريفا لهم بأنه يوم الرحمة والنعمة، كما أن السواد تحقير لهم بأنه يوم العذاب. وزاد الحوار من تشخيص الموقف، وجاء سؤال أهل التعاسة محملا بالتوبيخ والإنكار، بلا انتظار إجابة، في جو مكثف بالتبكيت والتأنيب.

وبدأ نسج القرآن الكريم بذكر بياض الوجوه أولا ثم أعقبها بسواد الوجوه، وعند التفصيل جاء الترتيب مختلفا، وهو ما اصطلح عليه البلاغيون باللف والنشر غير المرتب،

(١) نظم الدرر لنظم الدين البقاعي ٤/١٠

وذلك للبدء بما يَسر الإنسان ويسعده فيعمل له، وختم بما بدأ به للدلالة على سعة رحمة الله بدأ ونهاية، أما السواد فجاء منزويا؛ للدلالة على أن النفس السوية تمجه، ولا ترغب في بروزه أو انتشاره.

وجاءت المقابلة بين أهل الجنة وأهل النار وما يظهر على وجوه أهل الجنة نتيجة الطمأنينة والسكينة وما يترتب عليهما من سعادة وهناءة وسرور، وما يقابلها من القلق والتألم النفسي، وهذا يظهر أثره على أهل النار حيث السواد، وجاء التقابل بطريق ملفوف في الآيتين السابقتين فجمع المقدمات، ثم أعقبها بجمع الثواني بترتيب من الآخر، مراعيا تناسب المجاور، وهو أحد أساليب القرآن التي يتجلى فيه إعجازه، وفيه دعوة لإعمال العقل والتفكر في بيان القرآن، والبحث عن أسرار بلاغته، ووجوه إعجازه البياني.

ولا شك أن تتابع الحديث عن أهل السعادة وأهل الشقاء في مقام واحد فيه دلالة على التمييز الواضح بين الفريقين، وفي هذا تعانق المعاني والأداء الحاسم لها. وهي طريقة مطردة في بديع النظم القرآني.

وقد أفاض القرآن في الحديث عن أحوال المؤمنين في الآخرة، وماهم فيه من الفرح، والسرور، والسعادة الغامرة. قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ۝٢٤ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ۝٢٥ ﴾[القيامة : ٢٢-٢٥]، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝٣٩ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١ ﴾ [عبس:٣٨-٤١]، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝٢٢ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٢٣ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ۝٢٤ ﴾ [المطففين: ٢٢-٢٤] قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِى جَنَّةٍ

عَالِيَةٖ ﴿١٠﴾ لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٗ ﴿١١﴾﴾ [الغاشية٨-١١]، فوجوه المؤمنين مضيئة مستنيرة مشرقة ناعمة، نضرة، وهم في سرور وبهجة، واطمئنان، بما استشعروه من رضا الله عنهم، ونجاتهم من هول العذاب يوم القيامة، فتهللت وجوههم، واستبشرت بمنن الله عليها، وجاء وصف الوجوه بـ (ناضرة، مسفرة، ضاحكة، مستبشرة، مستقرة، ناعمة، نضرة النعيم) على صيغة اسم الفاعل؛ للدلالة على الثبوت والدوام، وهي كناية عن السرور والسعادة المحيطة بأهل الجنة، وهذا من التكريم المستمر لعبادة المؤمنين في الجنة؛ جزاء ما قدموا لأنفسهم ولغيرهم من أعمال الخير والبر، كما تدل الألفاظ على معنى الراحة والسعادة والاستقرار والاطمئنان، وهذا غاية في التلاؤم والانسجام بين الألفاظ والمعاني والسياق، واتخاذ النغم في كل المقاطع وهو دليل الإعجاز، وعلو البلاغة بل في الطبقة العليا منها، وفي إضافة (النضرة) إلى (النعيم) من إضافة المسبب إلى السبب، فالنضرة نتيجة للنعيم، الذي هو دليل السرور والرضى التي تبدو على المحيا.

ويلحظ التناغم الموسيقي بين الألفاظ والمعاني وانسيابها في التعبير عن حالة المؤمنين في الجنة، وما أعد لهم من الجزاء، وبدا ذلك على الوجوه، فقلوبهم في بهجة ورضا على ما رزقهم الله من النعيم الدائم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾[المطففين :٢٢. ٢٨]. هذا الجزاء والنعيم الممتد لأهل الرضا، فهم في راحة وسعادة وفي كل ما تتوق له النفس، والفاء في قوله "فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ" للربط بين العمل والجزاء، والتسابق في سبيل تحقيقه، وكأنها تقول: إذا

أردت أن تكون من هؤلاء المنعمين فبادر بالعمل، وسابق إلى الخيرات، وشمر عن ساعد الجد، فلا سبيل إلى هذه المنزلة بغير التنافس والسبق، فدلت الفاء على الحث والإغراء على فعل الطاعات، ودل قوله "في ذلك" على الحصر والتأكيد على أن ذلك هو مجال التنافس الحقيقي لا غير(١).

ويلحظ التجاوب الموسيقي في حرف السين وأصدائها المريحة للنفس وهذا يحاكي جو النعيم الذي غمر المؤمنين في الجنة (يسقون، مسك، تسنيم) وراء هذا الجمال اللفظي جلال اللآلئ والنفائس والدرر النابعة من بلاغة التصوير وانسيابه في النفس فتزداد يقينا بأنه كتاب معجز وخالد إلى يوم القيامة.

ولا شك أن اقتران المعاني المتقابلة فيه حث على السير في طريق أهل السعادة حتى ينال الثواب العظيم، والبعد عن طريق التعساء لما فيه من أثر سيئ، ومصير شين. والمتدبّر للقرآن الكريم وبلاغته في ألفاظ أهل السعادة والشقاء ومقامهما يُدرك أنه جاء في أرفع رتبة في البلاغة، وأعلى درجة في الفصاحة، واختيرت ألفاظه وتراكيب بعناية ربانية، وتميز أسلوبه بالمتانة، ونظمه بقوة إحكام، ومعانيه بأوضح دلالة وأوفاها، وكان هو المعجزة الخالدة.

(١) ينظر: روح المعاني لألوسي ٧/ ١٨.

النتائج

بعد هذه المعايشة لآيات السعادة في القرآن الكريم وتحليلها بلاغيا، كانت هذه النتائج:

- حدد القرآن مفهوم السعادة الحقيقية، فهي لا تقتصر على الفرد، بل تمتد لتشمل المجتمع، وتحصل بالعطاء وفعل الخيرات، كما تكون في منع الأذى الحسي والمعنوي عن الآخرين، وتكون في الدنيا والآخرة.
- اعتمدت آيات السعادة على الربط بين الفعل والجزاء والمقدمة والنتيجة من خلال أسلوب الشرط ترغيبا في فعل الخير والنهي عن الشر من خلال التمثيل وهذا يؤثر في القلوب ويبلغ المراد ولا شك أن ذلك إذا أتى من خلال التمثيل كان مقنعا، ومقربا للمقصود حيث يعطي المعنى مصحوبا بالدليل، ويقرب الغائب في صورة مشاهدة.
- جاءت الألفاظ معبرة عن السعادة بشكل صريح أو ضمني، من خلال السياق، وهذا من الإعجاز البلاغي.
- برز التناسب بين بناء الجرس الصوتي وإيحائه في التعبير عن أهل السعادة والشقاء في يوم الحساب والجزاء، فالأولى تتسم كلماتها بالانسيابية لهمس اللطيف للروح، والنجاء الأليف للقلب، وحسن الجرس والانسجام مع السياق، فضلا عن الدقة والإيحاء والمرونة، وهي دعوة للسير في طرقاتها، والاستشراف الدائم للوصول إليها، والراحة في النطق واختيار الحروف المناسبة في النطق للدلالة على المقصد العام، والدلالة المتسقة حيث الاطمئنان، والسرور والبهجة. أما الثانية فتتسم بقوة الجرس وشدة النطق، والتمني المتكرر الذي يستحيل تحقيقه، فضلا عن اليأس القابع الذي لا مفر منه، والحزن الممتد، والألم والأسى، وقد بدأ بأخذ الكتاب بالشمال الذي هو كناية عن التعاسة، والبؤس، وهذا من

إعجاز القرآن وبلاغته.

- برزت صورة التقابل بين أهل السعادة وأهل الشقاء في الآخرة، وتميزت صورة السعداء بالحركة الانسيابية المشحونة بالسرور، بخلاف غيرها حيث ثقل الحركة والكآبة والانزواء والرغبة في التخفي عن الأعين والألم وسواد الوجه، كما اتسمت صورة أهل الشقاء بالتفصيل.

رسم القرآن الكريم صورًا منفرة لا تدعم السعادة؛ لما لها من أثر سلبي على الطرف المقابل؛ ودعا المسلم على عدم القيام بها، وحثه على الأخذ ببديلها الإيجابي؛ حفاظا على مشاعر الآخرين، ومنها سوء الظن، والغيبة والنميمة، والتكبر ...الخ.

جاء التعبير باللون الأبيض كناية عن السعادة، وباللون الأسود كناية عن الشقاء في نسج محكم.

جسد التشبيه والمثل المعاني التي تساعد على تحصيل السعادة، كالإنفاق، والتراحم، والعفو والصفح والتلاحم بين بني الإنسان عامة والمؤمن خاصة.

نتقدم بخالص الشكر والتقدير لعمادة البحث العلمي بجامعة حائل لتمويلها للمشروع البحثي رقم (BA-2201).

المصادر والمراجع

الإحساس بالجمال في ضوء القرآن الكريم، محمد عبد الواحد حجازي، ط١، القاهرة، كتاب الهلال، سلسلة ثقافية شهرية، العدد ٣٩٧ - ١٤٠٤هـ.

أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، جدة، دار المدني، ط١ ١٩٩١م.

الإعجاز الفني في القرآن، عمر السلامي، نشر وتوزيع مؤسسات عبد الكريم عبد الله، تونس ١٩٨٠.

إعجاز القرآن للباقلاني، تحقيق السيد صقر، ط٥ مصر، دار المعارف ب. ت.

ألهاكم التكاثر، عبد الجليل نصار الجليل، ط١، الرياض، مطبعة العبيكان، ٢٠١٥م.

تحرير التحبير، لابن أبي الإصبع، تحقيق: محمد حفني، ط١، القاهرة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٤٣٢هـ.

التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور، ابن عاشور، محمد الطاهر، ط١، بيروت، مؤسسة التاريخ، ٢٠٠٠م.

التصوير الساخر في القرآن الكريم د. عبد الحليم حفني، ب. ط، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢.

التعريفات، الجرجاني، علي بن محمد بن علي، حققه وقدم له إبراهيم الإبياري، ط١، مصر، دار الريان للتراث، ١٤٠٥هـ.

تفسير أبي السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، العبادي، أبو لسعود محمد بن محمد، ب. ط، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ب. ت.

التفسير البياني للقرآن الكريم، عبد الرحمن، عائشة، ط٦، القاهرة، دار المعارف مكتبة الدراسات الأدبية. ب. ت.

ثلاث رسالة في إعجاز القرآن للرماني، والخطابي، وعبد القاهر الجرجاني في الدراسات

القرآنية والنقد الأدبي، ط٤، القاهرة، دار المعارف، ب. ت.
حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي، الخفاجي، شهاب الدين أحمد بن محمد، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٧م.
دلائل الإعجاز، الجرجاني، عبد القاهر، قرأه وعلق عليه، محمود محمد شاكر، ط٣، القاهرة، مطبعة المدني، ١٩٩٢.
رسائل الرافعي، ب. ت، ب. ط.
روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي، محمود، ب. ط، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ب. ت.
سبل السعادة، سعد خلف العفنان، ١٩٨٩م.
سبيل السعادة ليوسف الدجوي دار الفاروق. ب. ت.
سبيلك إلى السعادة والنجاح، سمير شيخالي، ط٤، بيروت، منشورات دار الآفاق الجديدة ،١٩٨٢م،
السعادة بين الوهم والحقيقة، ناصر بن سليمان العمر ب. ت.
السعادة والشقاء من دار الفناء إلى دار البقاء جمع سمو الأمير آل سعود، سعود بن محمد بن عبد الله بن جلوي آل سعود، الرياض دار القبس للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١٤م.
طب القلوب عند الإمامين الجليلين ابن تيمية الحراني، وابن قيم الجوزية، إعداد أحمد الراوي، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٢١م.
الطراز المضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ليحي بن حمزة العلوي، ب. ط، بيرت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٠م.
علم البديع دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع، فيود، بسيوني، ط٢، القاهرة، مؤسسة المختار للتوزيع ،٢٠٠٤م.

غذاء الروح، المسند، الشيخ عبد العزيز، ط٣، السعودية، دار العمير، ١٤٠٧م.
الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية، لسليمان بن عمر العجيلي الشافعي الشهير بالجمل، ب. ط، السعودية: دار الفيصلية مكة المكرمة، ب. ت.
فن السعادة ومتعة الحياة، د. أحمد توفيق حجازي، ط١، عمل، كنوز المعرفة، ١٤٤١هـ-٢٠٢٠م.
القرآن وانفعالات الإنسان، المليجي، عاطف، ط١، القاهرة، مطبعة سعيد عبد الخالق ٢٠٠٢م.
الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الزمخشري، محمود بن عمر، ط٣، القاهرة، دار الريان، ١٩٨٧م.
المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، الأندلسي، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية، ط٥، المغرب، المجلس العلمي بفاس. ١٣٩٥هـ.
مختار الصحاح لأبي بكر الرازي، لبنان ط٢، ١٩٩٢م.
مذهب المنفعة العامة في فلسفة الأخلاق، الطوي، توفيق، ط١، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٣م.
مسائل الرازي وأجوبتها من غرائب آي التنزيل، الرازي، محمد بن أبي بكر عبد القادر، تحقيق إبراهيم عطوة عوض، ط٢، مطبعة مصطفى الحلبي، ب. ت.
ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، الغرناطي، أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي، تحقيق سعد الفلاح، ط١، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٣م.
من بلاغة القرآن، بدوي، أحمد أحمد، ب. ط، القاهرة، دار نهضة مصر ب. ت.
من جماليات التصوير في القرآن، محمد قطب عبد العال، سلسلة دعوة الحق السنة الثالثة عشرة ربيع الأول ١٤١٥هـ، العدد ١٤٧.

من كنوز البلاغة القرآنية في سورتي الحجرات وق، طبق، عبد الجواد، ط١، القاهرة، مطبعة الأمانة، ١٩٨٦م.

نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي، البقاعي، برهان لدين أبي الحسن إبراهيم، خرج آيتها وأحاديثه ووضع حواشيه عبد الرزاق غاب المهدي، ط٢، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣م.

نفوس ودروس في إطار التصوير القرآني، سبع، توفيق محمد، ب. ط القاهرة، سلسلة البحوث الإسلامية السنة الثالثة الكتاب الرابع والثلاثون، نشر مجمع البحوث الإسلامية، ١٩٧١م.

Bibliography

Ibn Ashour, Muhammad Al-Tahir, "al-Taḥrīr wa-al-Tanwīr = Tafsīr Ibn ʻĀshūr", (Ṭ1, Beirut : Mu'assasat al-Tārīkh, 2000).

Āla Saud, Saud bin Muhammad bin Abdullah bin Jalawi"al-Saʻādah wālshqā' min Dār al-fanā' ilá Dār al-Baqā'", (1st ed., Riyadh: Dār al-Qabas, 2014).

Al-Andalusi, Abu Muhammad Abd al-Haqq ibn Ghalib ibn Attiya, "al-muḥarrir al-Wajīz fī tafsīr al-Kitāb al-ʻAzīz", (5th ed., Morocco: Scientific Council of Fas, 1395 AH).

Al-Baqillani, Abu Bakr, "Iʻjāz al-Qur'ān", investigated by: al-Sayyid Ṣaqr, (5th ed., Egypt: Dār al-Maʻārif).

Badawi, Ahmed Ahmed, "Min Balāghat al-Qurʾān", (Cairo, Dar Nahdet Misr).

Al-Buqa'i, Burhan al-Din Abi al-Hasan Ibrahim, "Nazm al-Durar fi Tanāsub al-Ayat wa-al-Surah". Cared by: Abd al-Razzaq Ghab al-Mahdi, (2nd ed., Beirut: Dar al-Kutub al-Ilmiyyah, 2003).

Al-Jurjani, Abdul Qahir, "Dalā'il al-iʻjāz". Read and commented by: Maḥmūd Muḥammad Shākir, (3rd ed., Cairo: Maṭbaʻat al-madanī, 1992).

Al-Jurjani, Abdul Qahir, "Asrār al-Balāghah". Read and commented by: Maḥmūd Muḥammad Shākir, (1st ed., Jeddah: Dār al-madanī, 1991).

Jaʿfar, Muhammad Abd al-Rahman, "**Happiness: Its Concept, Types, and Means of Achieving It, an Objective Study in the Holy Quran**" (in Arabic). Journal of the Islamic University 168, (2012): 323-498.

Hijāzi, Ahmed Tawfiq, "The Art of Happiness and the Pleasure of Life" (in Arabic). (1st ed., Amman: Kunuz Al-Ma'rifah, 1441 AH - 2020).

Hijāzī, Muhammad ʿAbd al-Wahid, "The Feeling of Beauty in the Noble Qur'an" (in Arabic), (1st ed., Cairo: Kitab al-Hilal, Monthly Cultural Series, Issue No. 397-1404 AH).

Hafni, ʿAbd al-Halim, "al-Taṣwīr al-sākhir fī al-Qur'ān al-Karīm", (Cairo: al-Hay'ah al-Miṣrīyah al-ʻĀmmah lil-Kitāb, 1992).

Al-Dajwi, Yousuf, "Sabīl al-Saʿādah", (Cairo: Dar Al-Farouq).

Daraz, Sabah, "Min al-ʿJāz al-Balāghī lil-Qurān", (Egypt: Dar Al-Tawfiqia Printing, 1980).

Al-Razi, Abu Bakr, "Mukhtarr Al-Sihāh". (3rd ed., Beirut: Libanon, 1992).

Al-Razi, Muhammad bin Abi Bakr Abd al-Qadir, "masā'il al-Rāzī wa-ajwibatuhā min gharā'ib āyi al-tanzīl", investigated by: Ibrāhīm

ʻAṭwah ʻAwaḍ, (2nd ed., Cairo: Maṭbaʻat Muṣṭafá al-Ḥalabī).
Al-Rāwi, Ahmad, "Ṭibb al-qulūb ʻinda al-imāmain al-jalīlayn Ibn Taymīyah al-Ḥarrānī, wa-Ibn Qayyim al-Jawzīyah", (1st ed., Beirut: Dār al-Kutub al-ʻIlmīyah, 2021).
Al-Rummani, Al-Khattabi, ʿAbd al-Qahir al-Jurjani Fī al-Dirāsāt al-Qur'ānīyah wa-al-Naqd al-Adabī, "thalāth Risālat fī Iʻjāz al-Qur'ān, (4th ed., Cairo, Dār al-Maʻārif,).
Al-Zamakhshari, Mahmoud bin Omar, "al-Kashshāf ʻan ḥaqā'iq ghawāmiḍ al-tanzīl wa-ʻuyūn al-aqāwīl fī Wujūh al-ta'wīl", (3rd ed., Cairo: Dār al-Rayyān, 1987).
Sabʿ, Tawfiq Muhammad, "Nufūs wa-durūs fī iṭār al-Taṣwīr al-Qur'ānī", (Cairo: Islamic Research Series, Third Year, Thirty-Fourth Book, published by the Islamic Research Complex, 1971).
Al-Salami, Omar, "al-iʻjāz al-Fannī fī al-Qur'ān", (1st ed., Tunisia: publication and distribution of ʻAbd al-Karīm ʻAbdullāh's foundation, 1980).
Shikhali, Samir, "Sabīluk ilá al-Saʻādah wa-al-najāḥ", (4th ed., Beirut, Manshūrāt Dār al-Āfāq al-Jadīdah, 1982).
Al-Saleh, Muhammad Adeeb, "Man and Life, in Pauses with Verses", (in Arabic). (1st ed., Riyadh: Obeikan, 2007).
Tabq, ʿAbd al-Jawād, "min Kunūz al-Balāghah al-Qur'ānīyah fī Sūratay al-Ḥujurāt wa-Qāf", (1st ed., Cairo: Maṭbaʻat al-Amānah, 1986).
Al-Tawil, Tawfiq, "madhhab al-manfaʻah al-ʻĀmmah fī Falsafat al-akhlāq", (1st ed., Cairo: Maktabat al-Nahḍah al-Miṣrīyah, 1953).
Aisha, ʿAbd al-Rahman, "al-Tafsīr al-Bayānī lil-Qur'ān al-Karīm", (6th ed., Cairo: Dār al-Maʻārif Maktabat al-Dirāsāt al-Adabīyah)
Al-ʿAbādi, Abu Lasʿoud Muhammad bin Muhammad, "tafsīr Abī al-Saʻūd al-musammá Irshād al-ʻaql al-salīm ilá mazāyā al-Qur'ān al-Karīm", (Beirut: Dār Iḥyā' al-Turāth al-ʻArabī).
ʿAbd al-ʿAl, Muhammad Qutb, "min Jamālīyāt al-Taṣwīr fī al-Qur'ān", (1st ed., Makkah al-Mukarramah: Makkah Al-Mukarramah: The Call of Truth Series, Thirteenth Year, Rabi' Al-Awwal 1415 AH, Issue 147).
Al-ʿAlawi, Yahya bin Hamzah, "al-Ṭirāz almḍmn li-asrār al-balāghah wa-ʻulūm ḥaqā'iq al-iʻjāz" (Riyadh: Maktabat al-Maʻārif, 1980).
Al-Gharnati, Ahmed bin Ibrahim bin Al-Zubair Al-Thaqafi Ahmed bin Ibrahim, "Malāk al-ta'wīl al-qāṭiʻ be-dhawī al-ilḥād wa-al-taʻṭīl fī tawjīh al-mutashābih al-lafẓ min āy al-tanzīl". Investigated by:

Sa‘d al-Falāḥ, (1st ed., Beirut: Dār al-Gharb al-Islāmī, 1983).
Fayyoud, Bassiouni, "‘ilm al-Badī‘ dirāsah tārīkhīyah wa-fannīyah li-uṣūl al-balāghah wa-masā’il al-Badī‘", (2nd ed., Cairo: Mu’assasat al-Mukhtār lil-Tawzī‘, 2004).
Al-Musnad, Abd al-Aziz, "Ghidhā’ al-Rūḥ", (3rd ed., Saudi: Dār al-‘Umayr, 1407).
Al-Masry, Ibn Abi Al-Iṣbiʿ, "taḥrīr al-Taḥbīr". taḥqīq Muḥammad Ḥifnī, (1st ed., Cairo: al-Majlis al-A‘lá lil-Shu’ūn al-Islāmīyah, 1432 AH).
al-Malījī, ‘Āṭif, "al-Qur’ān wa-Infi‘ālāt al-Insān", (1st ed., Cairo: Maṭba‘at Sa‘īd ‘Abd al-Khāliq 2002).
Naṣṣār, ‘Abd al-Jalīl, "al-Ḥākum al-Takāthr", (1st ed., Riyadh: Maṭba‘at al-Obeikan, 2015).

١٣٨١
١٩٦١

The Islamic University Journal of Arabic Language and Literature

part 2

July - Sept
2024

Issue
13